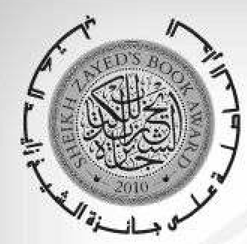


المَــلاذُ الآمِــنُ

للدكتور

محمد محمد داود





المَـلاذُ الآمِـنُ

للدكتور

محمد محمد داود





الدكتور/ محمد محمد داود

الملاذ الآمن

http://www.nahdetmisr.com
تمّ إنتاج الكتاب الإلكتروني من قبل Hekayh
نشر الكتاب الإلكتروني 2017 ب Booqla
نشرت بواسطة دار نهضة مصر للنشر



https://www.facebook.com/nahdet.misr



https://twitter.com/NahdetMisrgroup



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الله ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

فهذا الكتيب حوار مع النفس والعقل، يحمل الهدايات الربانية للباحثين عن ملاذٍ آمنٍ في هذا العالم المضطرب كالموج الهادر، ويقدم الأجوبة الإيمانية إلى من يتساءلون بقلوبهم وألسنتهم:

1 – أين الأمان في دنيا الناس؟!

2 – أين الملاذ الآمن؟

3 – ما السبيل إلى أن يكون الله أنيسك؟

4 – إذا كنت تخشى على ذريتك مِنْ بعدك، فماذا تفعل؟

5 – كيف يأمن المظلوم ويرضى إن أفلت الظالم من العقاب في الدنيا؟!

6 – هل الابتلاء من سنن الله الجارية؟

7 – كيف تُرفَع الابتلاءات؟

8 – متى يكون الابتلاء رحمة؟

9 – ما عُدَّة المؤمن في مواجهة الابتلاء؟

10 – لماذا نصبر؟ لماذا لا نبطش؟ لماذا لا ننتقم؟
وهل الصبر سلبية وضعف؟!

11 – هل نُشْغَل بالنعمة عن المنعم؟

12 – مَن الغَرُورُ؟ وبِمَ يَغُرُّنا؟

13 – ما هذه الدنيا؟! دنيا ملعونة ودنيا مذمومة، كيف؟!

14 – كيف تأتينا الدنيا وهي راغمة؟!

15 – كيف كان حال مصطفانا مع دنيا الناس؟

16 – ما هذي الحياة؟

17 – وما الإنسان فيها؟

18 – أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟

19 – بركة القرآن لمن؟

20 – من الفائز بالهداية؟ ومن المحروم منها؟

21 – كيف النجاة من كل شقاء؟
22 – مرضاة الله لمن؟!
23 – كيف يتودد الله إلى عباده؟
24 – ما السبيل إلى نور الله؟
25 – هل تعلم أن لكل عبد بابًا مع الله؟
26 – أتدري ما الحقيقة الكبرى؟
27 – سبقَ القدر؛ فماذا تصنع الحيل؟!
28 – كيف يمكن للمرء أن يحدد صحبته وعنوانه في الآخرة؟
29 – زاد الرحلة إلى الآخرة، ماذا يكون؟
30 – علام التعالي وفيم التفاخر؟!
31 – ما النفس؟ وكيف تتمايز إلى خيِّرة أو شريرة؟
32 – ماذا عن رسالة إبراهيم عليه السلام إلى أمة الحبيب ﷺ؟
33 – من المفلح؟
34 – هل من الممكن أن يصلح العقل بديلًا عن السُّنة؟!
35 – هل العادات والتقاليد تصلح بديلًا عن السُّنة؟!
36 – هل تحب أن ترسل رسالة إلى حبيبك ﷺ؟
37 – فيك صفة من رسول الله ﷺ؟
38 – هل الدين صناعة بشرية؟!
39 – هل من حق البشر التغيير في الدين؟!
40 – هل الدين خاضع للتطور مثل باقي مظاهر الحياة؟!
41 – المرجعية الدينية لمن تكون: للعقل أم لخالق العقل؟
42 – ما موقع الاجتهاد في الدين؟
43 – هل الجمادات حقًّا تغضب من المرء العاصي، بينما تسعد بالمرء المطيع وتحزن على فراقه؟
44 – كيف يبلغ الإنسان قمة القرب من الله سبحانه وتعالى؟
45 – أتعلم أن هناك خلفاء لإبليس من بني آدم؟
46 – فيم النجـاة؟

أسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يتقبله بفضله، والحمد لله رب العالمين.

راجي عفـو ربه

محـمـد داود
2010 /6 /1
للتواصل والتفاعل والاقتراح:
dr.mohameddawood@yahoo.com

أين الملاذ الآمن؟!

الخوف .. القلق .. الاضطراب .. اليأس .. أمراض العصر، بل هُوِيَّة هذا العصر والعناوين البارزة لحضارته المادية.

– لماذا سيطرت الهواجس والمخاوف على إنسان هذا العصر البائس؟!

– لماذا احتشدت عليه كل ألوان المعاناة والتعب والبؤس والأمراض النفسية والجسدية؟!

– أين الملاذ الآمن؟!

– أيمكن أن يكون ذلك الملاذ الآمن في امتلاك أسباب القوة؟!

لكن ها هم أولاء الذين يملكون كل أسباب القوة المادية:

● الثراء والرفاهية: سيارات فارهة وثياب فاخرة ومساكن فخمة مكيفة الهواء، وأجهزة توفِّر الجهد ولا تُكلِّف أكثر من لمسة بطرف الأصبع كي تنهي المطلوب منها.

لكنهم خائفون حائرون قلقون!!

● القوة العسكرية: ترسانات سلاحٍ مكدَّسة في كل مكان.. أسلحة فتَّاكة يمكنها أن تدمر هذا الكوكب عدة مرات، وكأنَّ تدميره مرة واحدة لا يكفي!!

لكنهم خائفون حائرون قلقون!!

● الفتوحات العلمية: يزعمون أنهم سيطروا على الطبيعة وأخضعوها لخدمة الإنسان.

لكنهم لا يستطيعون الصمود أمام نبضة من نبضات الأرض على هيئة فيضانٍ جارف أو زلزال مدمِّر أو بركان مُحرق.. تتداعى المباني الضخمة كأنها من زجاج، (كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) (العنكبوت: 41).

ولقد هبط الإنسان فوق القمر، وأرسل مركباته إلى أقاصي أطراف المجموعة الشمسية، وبثَّ رسائله إلى المجرات الأخرى لعله يجد في هذه العوالم البعيدة من يؤنس وحشته ويبدِّد مخاوفه. وما من مجيب!!

إنهم حائرون خائفون قلقون!!

● وسائل الاتصالات: شبكة عنكبوتية حوَّلت العالم إلى حجرة صغيرة، تستطيع أن تلتقي بمن شئت وتتحدث معه من أحد طرفي المعمورة إلى الطرف الآخر وكأنكما على مقعدين متجاورين.. شاشات التلفزيون والفضائيات تنقل الأحداث في لمح البصر.. والصحف والمواقع الإلكترونية تتنافس لنقل صورة حية للأحداث.. دور السينما والمسارح والنوادي والشواطئ والقرى السياحية والمنتجعات.

لكن المسافات بين القلوب تزداد بعدًا، والوحشة تشتد، ومعها الخوف والقلق

والاضطراب.. إنهم حائرون خائفون قلقون!!

● أين الملاذ الآمن؟!

(لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) (التوبة: 57).

(وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ) (التوبة: 118).

لقد تباعدت المسافة بين الخَلْق والخالق، وخسر الإنسان الطمأنينة والسكينة وحلَّت محلَّها الهواجس والرِّيَب والمخاوف.

إنهم حائرون تائهون مغتربون عن أنفسهم التي نسوها حينما نسوا خالقهم (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) (الحشر: 19).

وسيظل الإنسان غريبًا خائفًا حائرًا قلقًا ما دام بينه وبين الله حجاب.. قد اختار الإنسان أن يسلك مسلكًا عكس نواميس الكون، فالكون كله يُسبِّح لله، في تواصل دائم وطاعة للخالق وارتباط لا ينفك: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء: 44).

لكن الإنسان وحده من بين كل المخلوقات اختار لنفسه أن يبتعد عن خالقه، فكانت النتيجة حرمانه سبل الهداية وتخبطه في ظلمات الحيرة والضلال، قال الله تعالى عقب الآية المذكورة: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) (الإسراء: 45، 46).

إنهم حائرون خائفون قلقون؛ لأنهم لا يريدون الله وحده، يريدون أربابًا آخرين، أوثانًا جديدة أحلوها محلَّ الأحجار التي كان يعبدها أهل الجاهلية ويقولون: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (الزمر: 3). ويظنون أنهم بذلك يحصلون على رضا الله ورحمته.. كيف وقد أشركوا بالله آلهة؛ إفكًا اختلقوها؟! آلهة اللذة العاجلة الكاذبة، فضاعت أمانيهم وتلاشت أوهامهم؛ لأن اللذات العاجلة والشهوات الموقوتة لم يجعلها الله أساسًا للحياة، وضرب لها مثلًا بالزَّبد الذي يعلو فوق سطح الماء، فقال عزَّ من قائل: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ) (الرعد: 17).

هذا هو المقياس الصحيح للنفع والقيمة: الأشياء تكتسب قيمتها بمكوثها في الأرض واستمرار منافعها، أمَّا النزوات العابرة فهي بمثابة الزَّبد الذي لا يفيد ولا يمكث في الأرض.. إنه سراب عابرٌ نسميه السعادة والمتعة .. لكنها سعادة مزيَّفة ومتعة ناقصة تعقبها آلام ومعاناة؛ لأنها لا ترتبط بمصدر الجمال والكمال، وفقدت صلتها بأصل الحياة: الحي القيوم، فضَلَّت وضاعت معها آمال الإنسان وإحساسه بالسكينة والطمأنينة التي لا تكون إلا في مَعِيَّة الله عز وجل، واليقين بأن هناك إلهًا واحدًا مهيمنًا على الكون، هو الذي تطمئن بذكره القلوب: (أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد: 28) .

لأنها تعلم وتوقن بأنها في رعاية الله، مصدر الحفظ والأمن، هو المؤمِّن الذي يبعث

الأمن في النفوس، وهو القاهر فوق عباده، فلا تخضع الأعناق لطغيان الطغاة والمتجبِّرين، بل تخضع وتخشع للرحمن الذي كتب على نفسه الرحمة تفضُّلاً ومنَّةً على عباده.

فإذا غاب الأمل وأطبقت ظلمات اليأس والخوف والقلق، فلا ملاذ سواه: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ) (الإسراء: 67).

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) (الأنعام: 40، 41).

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) (التكوير: 26).

● أين الملاذ الآمن؟!

ليس ثمة وجهة إلَّا إلى الله:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الذاريات: 50).

لقد جرَّب الإنسانُ كلَّ السُّبُل فلم تُغْنِه عن الله شيئًا، لا الثروة ولا السلطة ولا أسباب القوة المادية ووسائل الرفاهية والراحة.. إنها الراحة التي تورث تعبًا، واللذة التي تعقب ندمًا، والمزيد من المعاناة والآلام والخوف والحيرة والقلق.. (لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ) (التوبة: 118).

ما من ملاذ آمن إلا عند الله المؤمِّن، وما من مفرٍّ إلا إلى واحة الإيمان والأمن، في رحاب الله المهيمن على كل شيء، الحافظ، المقيت، المحيي المميت، الحي القيوم.

لقد رسم لنا الله عز وجل طريق النجاة من كل أسباب القلق والخوف والاضطراب والمعاناة، جاء في الأثر: «من خاف الله أمَّنَهُ من كل شيء، ومن خاف غيرَ الله أخافه الله من كل شيء».

وقال الله عز وجل: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق: 2، 3). فلا يقلق على الرزق، ولا يخاف الفقر ولا الشقاء؛ لأنه في معيَّة الغنيّ المُغْنِي، ولا يخاف طغيان الطغاة، كما قال الله- عزوجل- للنبيَّيْن الكريمين موسى وهارون- عليهما السلام- وهما ذاهبان إلى طاغية الطُّغاة فرعونَ: (قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) (طه: 46).

الإيمان بالله هو الحلقة المفقودة، والله عزوجل هو الملاذ الآمن الذي يبحث عنه الإنسان، وحينما يعود الإنسان إلى ذلك الملاذ الآمن سوف تختفي معاناته وتذوب تحسراته، ويحل محلَّها الطمأنينة والثقة بوعد الله لعباده المؤمنين: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور: 55).

فالخوف والأمن جنود مجنَّدة لله عز وجل، فالأَمْن لمن آمن ولم يظلم: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأنعام: 82).

أما الذين ظلموا وضلُّوا عن سبيل الله فلهم الخوف والقلق والحيرة؛ لِأنَّهم نسُوا الله وانساقوا وراء شياطين الإجرام والظلم والترف: (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) (هود: 116).

(الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (الأعراف: 51).

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (النحل: 61). (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود: 102).

– أما آن لنا أن نعود إلى الله كي تستشعر نفوسنا الأمان؟

– أما آن لنا أن نتدبر آيات الله وننصت إلى كلماته كي تنفذ إلى قلوبنا فتبعثها من جديد وتوجّهها إلى الطريق الذي لا يُعْقِب حسرةً ولا يورث ندمًا؟!

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد: 16).

بلى .. إنه نداء الحق: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) فإن الإيمان نورُ الله، والمؤمن يرى بنور الله كما أخبر سيدنا رسول الله ﷺ. وقال الله تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام: 122).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الحديد: 28).

وإذا كان الإنسان يرى بنور الله فكيف تحاصره جيوش الظلام؟! وإذا كان الإنسان في كنف الله وفي حفظ الله فكيف يخاف، وأنَّى يأتيه القلق والاضطراب؟!

لقد أوحى الله إلى أم موسى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (القصص: 7).

فكيف تلقي أمٌّ رضيعها في البحر ولا تخاف؟! ثم أوحى إلى موسى أن يعبر بقومه البحر حين طاردهم فرعون بجنوده يريد أن يقضي عليهم: (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى) (طه: 77).

هذا البحر الهائج المضطرب يصبح بأمر الله مصدرًا للأمن ووسيلة للنجاة من الخوف.. والبحر نفسه. والمياه ذاتها التي جعلها الله سببًا في نجاة موسى وقومه هي نفسها التي جعلها الله سبب هلاك لفرعون وجنوده؛ ليوقن الإنسان أن سر النجاة في أن

يلوذ بالله؛ ففي معية الله وحده يكون الأمن.. والله وحده هو الملاذ الآمن، للنجاة من كل الشرور والخلاص من القلق والخوف والاضطراب.

ففـروا إلى الله !!

بشائر لمن لاذ بالله تعالى

بشائر لمن لاذ بالله تعالى

أيها الباحثون عن ملاذٍ آمنٍ في هذا العالم المضطرب كالموج الهادر تتساءلون بقلوبكم وألسنتكم:

– أين الأمان؟ وما الملاذ الآمن؟
– ما أثر الاستجابة لهدى الله في حياة الإنسان؟
– تُرى، ما وصية الله لأول أسرة نزلت على الأرض؟
– بشائر ربانية لمن لاذ بربه ومولاه.
– واجب العبد أن يذكر ربه، فهل يذكر الرب عبده؟!
– هل تحب أن يكون الله أنيسك؟
– كيف تَعُم البركة؟
– إذا كنت تخشى على ذريتك مِنْ بعدك، فماذا تفعل؟

❁ ❁ ❁

تبارك الله القائل في محكم آياته: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (الأنفال: 24).

الاستجابة لهدى الله ورسالاته حياة للإنسان، وبعث جديد له، تنقله من عالم الغفلة والعبث والعدم إلى عالم الأمن والسكينة والطمأنينة والنور .. إلى الحياة.

قد كانت وصية الله عز وجل لأول أسرة نزلت على الأرض (آدم وحواء عليهما السلام) أن حدَّد لهم سبيل النجاة والملاذ الآمن، قال تعالى: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: 38). وقال تعالى: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى) (طه : 123).

والاستجابة لهدى الله والفرار إليه يؤتيان ثمارهما في الدنيا والآخرة، والسعيد الموفق من سعى في التماس هذه البشائر وتلك البركات التي تفضَّل الله بها على من لاذ به.

فأمَّا في الدنيا فمن هذه البشائر:

– البشرى الأولى: أن يذكره الله سبحانه وتعالى ويثني عليه، قال الله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ) (البقرة: 152).

وفي الحديث القدسي:

قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال

العبد: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرَّحْمَن الرَّحِيم) قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: (مَالِك يَوْمِ الدِّين) قال: مجَّدني عبدي، وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي، فإذا قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». [مسلم/598].

ويقول النبي ﷺ فيما يروي عن ربِّ العزة: «أنا عند ظن عبدي بي... فإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

[البخاري، ك: التوحيد/ 6856]

وَأَنْعِم بهذه البشرى .. فأنْ يذكر الإنسان رَبَّه فهذا شَرْعٌ وَفَرضٌ، أما أنْ يذكر الله عَبْدَه فهذا فضل ما بعده فضل.

– البشرى الثانية: أن يشكره الله جل جلاله ويعظمه، قال عزَّ من قائل: (وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) (النساء: 147). شاكرًا لعباده ما مَكَّنهم من أدائه وما تفضَّل عليهم به من طاعته، فسبحانه وما أعظمه من إله يعطي عباده ثم يشكرهم على عطائه!! يقول الله عز وجل: (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) (الشورى: 23). ثم يقول الله تعالى يوم القيامة لعباده المؤمنين: (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) (الإنسان: 22).

– البشرى الثالثة: أن يحبه الله عز وجل، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران: 31). ولمزيد من فضله وواسع رحمته وفيض عطائه زاد على هذا فقال: (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)، وقال عز وجل في شأن المحسنين: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة: 195).

وقال في التَّوابين والمتطهرين:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة: 222).

وقال في عباده المتقين: (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (آل عمران: 76).

وقال في الصابرين: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران: 146).

وقال في المتوكلين عليه: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران: 159).

وقال في المقسطين أي العادلين: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة: 42).

وقدَّم سبحانه وتعالى حُبَّه لعباده في حب عباده له، فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) (المائدة: 54).

– البشرى الرابعة: أن يكون الله له وكيلًا يدبِّر شئونه، ويكون الله لرزقه كفيلًا ضامنًا

له، يوجهه من حال إلى حال وَيُصرِّف أموره من غير كدٍّ ولا تعب، قال تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) (النساء: 81).

وقال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق: 2، 3).

وقال الله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران: 173).

– البشرى الخامسة: أن يكون الله له نصيرًا يكفيه كل عدو ويرد عنه كل كيد أو عدوان، قال تعالى: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: 7).

وجمع بين رسله الذين اصطفاهم وبين المؤمنين في سياق واحد، فقال عز وجل: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ) (غافر: 51).

ومن ينصره الله فلا يخذل، ولا يقدر علي إيذائه مخلوق، قال تعالى: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران: 160).

وأكدت آيات القرآن الكريم أن الله تعالى ينصر عباده المؤمنين، من ذلك قوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) (الحج: 40)، بل جعل الله عز وجل نصر المؤمنين حقًّا لهم على ربهم، فقال تعالى: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم: 47).

– البشرى السادسة: الولاية، قال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة: 257).

وقال عز وجل: (وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج: 78).

وفي الحديث القدسي:

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». [البخاري، ك: الرقائق/ 6021].

– البشرى السابعة: أن يكون الله له أنيسًا فلا يُحِسُّ بوحشةٍ ولا غُرْبةٍ، وذلك أنه كلما طاف به طائف أو أصابه قلق أو خوفٌ ذكر الله: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد: 28).

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح: 4).

– البشرى الثامنة: عزة النفس، فلا يلحق بعباد الله المؤمنين ذلٌّ ولا يصيبهم هوان،

فكيف وقد جعل الله لعباده المؤمنين نصيبًا من عزته جلَّ جلاله فقال: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون: 8).

فالله يرفع أقدار عباده المؤمنين عن أن يصيبهم دنس الدنيا ولهوها وزخرفها، ويجعلهم فوق الذين كفروا، قال الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (المجادلة: 11).

وقال عز وجل: (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (آل عمران: 55).

– البشرى التاسعة: غنى القلب، فالمؤمن يشعر في نفسه بالغنى وإن كان فقيرًا بموازين أهل الدنيا؛ وكيف يشعر بالفقر من كان في حمى الغني الكريم؟!

قال الله تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (التوبة: 28).

وقال عز وجل في الصالحين من الإماء والعبيد:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (النور: 32).

– البشرى العاشرة: نور القلب، يضيء به الله بصيرة المؤمن، وهو من نور الله عز وجل، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) (الحديد: 28).

– البشرى الحادية عشرة: شرح الصدر، قال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ) (الأنعام: 125).

وقال تعالى: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ) (الزمر: 22).

– البشرى الثانية عشرة: المحبة في القلوب؛ لأن الله عز وجل أحبهم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (مريم: 96).

وقال ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جبريلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يحبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ». [البخاري، ك: بدء الخلق/ 2970].

– البشرى الثالثة عشرة: عموم البركة في كل شيء، في نفسه وعمله وفي وقته وصحته وقُوَّتِهِ وحياته كلها، وصدق الله القائل: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) (الأعراف: 96).

– البشرى الرابعة عشرة: تسخير الأرض وما فيها لعباد الله المؤمنين، كما أوتي داود عليه السلام: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) (الأنبياء: 79). وألان له الحديد: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) (سبأ: 10).

وكما سخر الإنس والجن والحيوان والطير لسليمان عليه السلام، قال الله تعالى:

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (21) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (سبأ: 12، 13).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ الله مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلانٌ لِلاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَن اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ»، وحَدَّثَنَاه أَحْمَدُ بْنُ عَبْدَةَ الضَّبِّيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو دَاوُدَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ بِهَذَا الإِسْنَادِ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ وَأَجْعَلُ ثُلُثَهُ فِي الْمَسَاكِينِ وَالسَّائِلِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ. [مسلم، ك: الزهد والرقائق/ 5299].

– البشرى الخامسة عشرة: إجابة الدعوة من الله عز وجل، قال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة: 186).

والمؤمن مستجاب الدعاء وإن بدا في ظاهره هينًا رثَّ الهيئة، قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعثَ أغْبَرَ لو أقسم على الله لأبَرَّه». [أخرجه مسلم، ك: البر والصلة].

أي: رُبَّ إنسانٍ رثِّ الهيئة لا يراه الناس عظيم الشأن في الظاهر، ولكنه في باطنه يملك قوةً عظيمة وكنوزًا لا حدَّ لها، حتى إنه إذا أقسم على الله – أي خاطب ربه قائلًا: وعِزَّتِكَ لتفعلنَّ كذا – لأَبَرَّه، أي صدَّق قسمه واستجاب لما دعا به.

وقد روى لنا القرآن قصصًا في عباد الله المؤمنين الذين استجاب الله دعاءهم، من ذلك ما جاء في أيوب عليه السلام، وكيف كشف الله عنه الضُّرَّ لما دعاه منيبًا إليه. وما كان من أمر نوح عليه السلام حين دعا الله قائلًا: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) (نوح: 26)، فأجاب الله دعوته وأغرق الأرض بالطوفان، وأهلك جميع الكافرين فلم يَنْجُ إلا نوح ومن آمن معه.

أما عن سيد الأنبياء محمد ﷺ فدعواته مشهورة ومعروفة، ومن ذلك دعاؤه على قبيلتي رعل وذكْوان، ورجال سمَّاهم بأسمائهم، فهلكوا جميعًا بإجابة الله دعوة نبيه ﷺ ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم من دعائه ﷺ بنزول المطر، فجعل المطر يسقط بغزارة قبل أن ينتهي النبي ﷺ من دعائه، حتى عاد إليه الناس وسألوه أن يدعو الله كي يكف سقوط المطر، فرفع يديه ودعا ربَّه قائلًا: «اللهم حَوَالَيْنا لا علينا» فجعل المطر يتساقط حول أطراف المدينة ولا يصيب سكانها بأذى أو يهدم بيوتهم. [البخاري، ك: الجمعة/881. ومسلم، ك: الاستقامة/1493].

وغير ذلك من دعواته المباركة ﷺ.

– البشرى السادسة عشرة: الأمان للذرية، قال تعالى: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا) (النساء: 9).

– البشرى السابعة عشرة: الحياة الطيبة، قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) (النحل: 97).

– البشرى الثامنة عشرة: نعمة الأمن، قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأنعام: 82).

وأما البشائر التي في الآخرة فكثيرة.. منها:

– البشرى الأولى: أن يهون الله عليه سكرات الموت، قال تعالى: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل: 32) .

– البشرى الثانية: التثبيت بالقول الثابت الذي تكون به النجاة، قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (إبراهيم: 27).

– البشرى الثالثة: البشرى بالأمان يوم القيامة، والفوز بالجنة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (فصلت: 30). وقال تعالى: (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (السجدة: 17).

– البشرى الرابعة: بياض الوجه ونوره يوم القيامة، قال تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (القيامة: 22، 23). وقال تعـالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) (عبـس: 38، 39).

– البشرى الخامسة: الأمن من أهوال يوم القيامة، قال تعالى: (أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (فصلت: 40).

– البشرى السادسة: أخذ الكتاب باليمين وتيسير الحساب وثقل الميزان، قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) (الحاقة: 19).

وقال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) (الانشقاق: 7 – 9).

– البشرى السابعة: رفقة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، والشهداء والصالحين، قال تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (النساء: 69).

❁ ❁ ❁

هَدْيُ الإسلام يحقق الأمن

- ما حقيقة الأمن الرباني؟ وكيف نناله؟
- أين الأمان في دنيا الناس؟!
- كيف يحقق تشريع الإسلام الأمن للنفوس والقلوب؟
- هل في القصاص حياة حقًّا؟!
- كيف يأمن المظلوم ويرضى إن أفلت الظالم من العقاب في الدنيا؟!

* * *

الأمن من أهم القضايا التي شغلت دول العالم بأسره، وقامت من أجله هيئات ومنظمات متعددة، وكلها تنشد تحقيق الأمن في المجتمع الدولي.

وفي كل دولة متحضرة أجهزة أمنية غاية في التطور والتقدم، ولقد جاء العلم الحديث بصنوف شتى من الأجهزة الحديثة، لكن نظرة واحدة إلى نسبة الجريمة في دول العالم، تجد أنها مرتفعة وفي تزايد!!

فشلت الأسلحة في تحقيق الأمن، فالأمن الحقيقي لا يُفرض بسلطة، وإنما ينبع من أفراد المجتمع من دخائلهم، من ضمائرهم، من أسلوب معاملاتهم.

وتأمل معي مثالًا بسيطًا: لو رأيت رجلًا يحرسه جنود كثيرون؛ من أمامه ومن خلفه وعند بيته وفي عمله، أترى هذا الإنسان آمنًا؟! إنه لا يستطيع أن يتحرك دون أن يخبر حراسه .. وماذا لو ناموا أو غفلوا؟! وماذا لو خانوا؟ وماذا لو ضعفوا؟! وما شعوره حين يسقط شيء في غرفة مجاورة له .. أو ينفجر إطار سيارة أمام مكتبه؟! رجفة من الخوف تزلزل قلبه.

بيد أن الإسلام له نظرته المتميزة لقضية الأمن؛ فالإسلام لا يعرف هذه الصورة السطحية لمعنى الأمن، لكنه يغرس الأمن في ضمائر الناس ويعمقه في قلوبهم ولا ينال أحد من الخلق الأمن إلا بسببين هما:

1 - الإيمان بالله تعالى.

2 - العمل الصالح.

يقول الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأنعام: 82).

وقال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(النور: 55).

وجاء في السُّنة من وصايا النبي ﷺ قوله: «احفظ الله يحفظك». [الترمذي، ك: صفة القيامة/ 2440].

ولفظ الحفظ في الحديث يشمل الأمن والعناية من الله تعالى، ودل على هذا العموم حذف المتعلق في يحفظك، فلم يحدد: هل يحفظك في مالك؟ هل يحفظك في أهلك؟ هل يحفظك في دينك؟... إلخ، حتى ينصرف الحفظ إلى كل ما يمكن أن يحفظ، فأفاد العموم.

ودلالة الأمن في الإسلام لا تقتصر على دفْع المخاطر والمخاوف عن الإنسان فحسب، بل تتعداها لتشمل الحياة الطيبة، وهذا ما وعد الله به أهل الإيمان والعمل الصالح.

قال الله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: 97).

وحديث الثلاثة الذين انحدرت عليهم الصخرة من أعلى الجبل يظهر ثمرة العمل الصالح- بعد الإيمان بالله تعالى- في تحقيق الأمن.

ترى في موقف كهذا عزَّ عليهم الاتصال بأي بشر .. وغابت كل قوى البشر عنهم، وهم عُزَّل من كل محاولة يستطيعون بها الفوز بالأمن والنجاة من هذا الخطر الذي فاجأهم، وكان التوسل بالعمل الصالح إلى من آمنوا به ربًّا قادرًا خالقًا .. لا يغلبه شيء وهو قادر على كل شيء هو السبيل لنجاتهم.

وهذا لون من الأمن، أو قل من التأمين على الحياة لا تعرفه الحياة المادية.

والأمن كثمرة للإيمان والعمل الصالح يمتد إلى ما بعد حياة الإنسان؛ إلى ذريته من بعده، قال الله تعالى: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا) (النساء: 9).

وهكذا جعل الله الإيمان والتقوى سبيلًا يحقق للذرية الأمن من حوادث الأيام وتقلبات الزمن.

يؤكد هذا المعنى ما جاء في القرآن الكريم من قصة اليتيمين ذوي المال الذي تركه لهما أبوهما تحت الجدار القديم الذي أوشك أن يتهدم، فيضيع المال على اليتيمين ولا ينتفعان به، فأرسل الله عبدًا تقيًّا ملهمًا فأصلح الجدار بأمر من الله تعالى: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) (الكهف: 77).

وقد وضح العبد الصالح (الخضر) لنبي الله موسى عليه السلام سبب إصلاح الجدار الذي تحته الكنز، يقول الله تعالى: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) (الكهف: 82).

وإنها للفتة كريمة عظيمة تلك التي ينبه عليها الإسلام، وهي أن جانبًا من تحقيق الأمن

للأموال خشية الضياع والهلك، إنما يكون بطاعة الله بأداء ما افترض الله فيها من زكاة؛ يقول النبي ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة» . [السنن الكبرى للبيهقي/ 3: 382].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «الزكاة قنطرة الإسلام، وما هلك مال في بر أو بحر إلا بسبب حبس الزكاة». [مجمع الزوائد للهيثمي/ 3: 62].

وحسبنا في هذا المعنى ما ذكره القرآن الكريم في شأن أصحاب الجنة الذين أقسموا أن يمنعوا الفقراء من حقهم فعاقبهم الله، قال تعالى: (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلاَ يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (القلم: 17–33).

- كيف يُحقِّق هدي الإسلام نعمة الأمن؟

كل إرشادات الإسلام وهداياته تحقق الأمن للفرد والمجتمع، فالإسلام كما يأمرك بألا تتعرض بسوء لأموال الناس وأعراضهم ودمائهم، وأن تحافظ عليها؛ فإنه يأمر كل الناس في مجتمع المؤمنين بأن يحافظوا على أموالك وعرضك ودمك.

قال النبي ﷺ: «إن المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» [ابن ماجه، ك: الفتن/ 3924].

وقال ﷺ: «خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شره» [الترمذي، ك: الفتن/2189].

وقال ﷺ في حجة الوداع:

« أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا .. ألا هل بلغت اللهم فاشهد، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». [البخاري، ك: الحج/1623].

ومن هدي الإسلام أنه جعل البيع والشراء بعيدًا عن المخادعة والزيف والتضليل والكذب فكل هذا يحدث من كثير من الناس ليروجوا بضاعتهم؛ يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) (النساء: 29).

ومن هدي الإسلام حرصه على حفظ الأمانات وصيانة الحقوق؛ خوفًا من الخيانة والغدر؛ يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (المائدة: 1).

وحذر الإسلام من ترويج الشائعات ونشرها؛ حتى نحفظ على الناس أمنهم، ولا نلحق

بهم من التُّهم ما يؤذيهم؛ يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات: 6).

ولا شك أن مجتمع المسلمين يتأذى من إدانة متهم بريء أكثر مما يتأذى من إفلات مجرم من عقاب.

وقد أوصى النبي ﷺ بأن ندرأ الحدود عن المسلمين ما لم تتوافر الأدلة الصحيحة القاطعة لإثبات التهمة، قال النبي ﷺ: «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فَخَلُّوا سبيله؛ فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» [الترمذي، ك: الحدود / 1344].

ويحرِّم الإسلام تتبع عورات المسلمين وعيوبهم؛ فيقول النبي ﷺ: «إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». [أبو داود، ك: الأدب/4244].

بل إن الأمن ليصل إلى أن يكون الإنسان آمنـًا من الظنون السيئة من أهل مجتمعه .. فالظن السيِّئ بأهل الإيمان محرم.

وعلى سبيل الإجمال، يمكن أن نرى هذا الجانب الأمني الذي يختص بالأخلاق في قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) (الحجرات: 11، 12).

والناظر إلى أبواب المعاملات في الفقه الإسلامي، يظهر له أنها تتكامل في تحقيق الأمن للمتعاملين بهذه التعاليم؛ فهناك النهي عن البيوع التي تضر بالعقل مثل: بيع الخمر، الحشيش، الأفيون، وسائر المخدرات والمسكرات، وفي هذا تأمين على حاسة العقل وأمن له.

وهناك النهي عن الغش أو الغرر أو النجش في البيع، وغير ذلك من نظم الإسلام التي وضعها لضبط مسائل المعاملات بين الناس ولها مباحثها في كتب الفقه الإسلامي.

وما هذه الأمثلة إلا غيض من فيض، وقطرة من بحر.

وهكذا ترى أن الأمن في الإسلام يتحقق عن طريق الإيمان والعمل الصالح؛ فالإيمان والطاعة يحققان أولًا أمن النفس البشرية من وساوس الشيطان وهواجس الشر، ويحققان الأمن الأخلاقي للمجتمع كله ساعة أن يعيش هذا المجتمع هدايات الإسلام في واقعه؛ فالأعراض تصان والكرامة تحفظ.

والإيمان والطاعة يحققان الأمن لأموال المؤمنين ولسائر المعاملات بينهم، بل يحققان الأمن الاجتماعي بين أهل الإيمان، فمجتمع المسلمين لا يضيع به مسلم ولا يهدر له حق.

هذا ما يغرسه الإسلام في نفوس أتباعه من أخلاقيات حميدة وسلوكيات فاضلة يكون من ثمرة العمل بها نعمة الأمن.

لكن لا يسلم المجتمع من أشقياء ينحرفون عن صراط الله المستقيم، ومثل هؤلاء يمكن أن يحدثوا اضطرابات لها خطرها في إفساد أمن المجتمع. والإسلام لم يغفل هذه الناحية؛ فنراه قد وضع للحدود (الزنا – الخمر – السرقة – الحرابة – الردة – البغي) عقوبات محددة، وهناك القصاص وتوابعه.

والعقوبات بأنواعها المختلفة، من أهم مقاصدها منع الجريمة وتوفير الطمأنينة والأمن للمجتمع وحمايته من طغيان الأشقياء، من ذلك قول الله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: 179).

ففي موت شقي واحد حياة وأمن للجماعة.

والعقوبات ليست دنيوية فقط؛ فقد يستطيع بعض المجرمين الهرب من عقوبة الدنيا، أو أن يكون المجرم ألحن بحجته من خصمه– صاحب الحق– فيفلت من إثبات التهمة عليه، ولو لم يكن هناك جزاء أخروي لكان رد الفعل عند المظلوم أدعى لإثارة القلق والاضطراب، الأمر الذي يؤثر على أمن المجتمع، لكن يقينه بأن حقه إن ضاع في الدنيا فهو محفوظ عند الله تعالى يبعث في نفسه شيئاً من الهدوء والرضا بما عند الله من عوض.

ولأن حياة المؤمن ممتدة إلى ما بعد الدنيا إلى دار الخلود؛ فإن الأمن يمتد معها إلى دار الخلود؛ حيث الأمن المطلق.

يقول الله تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) (الدخان: 51).

(ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ) (الحجر: 46).

* * *

لوذوا بالله .. يا أهل البلاء

- هل الابتلاء من سنن الله الجارية؟
- كيف تُرفَع الابتلاءات؟!
- متى يكون الابتلاء رحمة؟
- ما عُدَّة المؤمن في مواجهة الابتلاء؟!
- بشرى: أهل البلاء ينتظرون إحدى الحسنيَيْن.
- شبهة مردودة.
- هل يبتليك الله لهوانك عليه؟!
- كم من فوائد تكمن في الشدائد!
- لماذا نصبر؟ ألا نبطش؟ ألا ننتقم؟ وهل الصبر نوع من السلبية والضعف؟!

* * *

من سنن الله الجارية في الأفراد والجماعات والأمم: سُنة الابتلاء، قال تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت: 2، 3).

والمتأمل لآيات الذكر الحكيم عن هذه السُّنة الإلهية: سُنة الابتلاء والمحنة والفتنة، يجد أن هناك أمورًا ثلاثة ارتبطت ببعضها في محيط الفتنة والابتلاء:

الأول: أمر الفتنة والابتلاء.

الثاني: الصبر على الابتلاء.

الثالث: البشارة والفرج.

وحين نتدبر الآيات القرآنية نجد أن هذه الثلاثة كلها من الله عز وجل؛ فالابتلاء من الله الحكيم، والصبر هبة من الله، ولا يفلح العبد في الصبر على البلاء إلا بتوفيق الله وعونه وتأييده؛ لقوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ) (النحل: 127).

والبشارة إنما هي فضل ونعمة من الله. فماذا بقي للعبد؟!

وهذا يؤدي بالعبد- إذا فقه هذه الحقيقة الإيمانية- إلى التسليم والرضا.

ومن الحقائق التي تتعلق بهذه الأمور أن البشارة لا تتأتى إلا إذا امتثل العبد لأمر ربه وأيقن أن الأمر كله لله، وأن الخلق كله لله، وأن الله يفعل ما يشاء، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كيف لا؟! وربنا قد بيَّن ذلك في قرآنه، قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (البقرة: 155 – 157).

وإذا ما انتبهنا إلى أن اللام في «لله» للملكية، بمعنى أننا ملك لله، فالعبد وما ملكت يداه ملك لسيده ومولاه، وللمالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء.

من هنا ندرك أن الابتلاءات في الأفراد والجماعات والأمم لا تُرفَع إلا بالامتثال لأمر الله، والصبر على المكاره، وعدم السخط على قدر الله.

– ومن حقائق الابتلاء في القرآن الكريم أن الابتلاء لا يكون بالشر وحده، وإنما يكون بالخير أيضًا؛ لقول ربنا تبارك وتعالى: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء: 35)، بل إن نعمة الحياة كلها اختبار وابتلاء ليميز من يحسن ومن يسيء، ومن يشكر ومن يكفر: (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل: 40).

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الملك: 2).

ومن حقائق الابتلاء في السُّنة النبوية أن الابتلاء لا يكون فقط عقوبة بسبب الذنوب والآثام، بل هو سبب رحمة، به تغفر الخطايا وترفع الدرجات، وفي الحديث:

عَنِ الْحَارِث بْنِ سُوَيْد عَنْ عبد الله قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسول الله ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا! قَالَ: «أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلان مِنْكُمْ». قُلْتُ: ذَلكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْن. قَالَ: «أَجَلْ ذَلكَ كَذَلكَ، مَا مِنْ مُسْلِم يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلا كَفَّرَ اللهُ بهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا».[البخارى، ك: المرضى/ 5216].

عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حَزَنٍ وَلا أَذًى وَلا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكهَا إِلا كَفَّرَ اللهُ بهَا مِنْ خَطَايَاهُ» [البخارى، ك: المرضى/5210].

والمتأمل المتدبر يرى أن الفتن والابتلاءات في هذا العصر فتن خطيرة، فتن كقطع الليل المظلم، فأنت تجد ما يراه الشباب من عري وافتضاح يُرَغِّب إليهم الرذيلة، ويُحَبِّب إليهم المعصية. ومن الفتن أيضًا: أن تكون المقدمة في المجتمع لمن ليس أهلًا لها، فالنجومية والمثل الأعلى ليست في العلماء ولا في الكادحين الجادين من أهل العمل، لكنها– في الأعم الأغلب– في أناس أحوالهم تتنافى مع هذه القيم، وأصبح الإنسان في المجتمعات المعاصرة يكتسب قدره من مستوى السيارة التي يركبها، أو الشقة التي يسكنها، أو رصيده المالي، لا لعلم ولا لتقوى ولا لصلاح!!

– ومن الفتن المعاصرة التضييق على أهل الصلاح والعلم، وإفساح المجال وإتاحة الفرصة لغير أهل الكفاءة ولا عجب، فالنبي ﷺ قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة». فلما سئل ﷺ: كيف إضاعتها؟ قمال: «إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر

الساعة». [البخارى، ك: العلم/57].

وينبغي على المؤمن ألا ينهار أمام هذه السلبيات بل يصبر، ويرى فيما عند الله عوضًا عن كل مفقود، امتثالًا لقوله تعالى: (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (القصص: 60).

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) (مريم: 76).

– ومن أخطر الفتن أن يكون حال الأمة وحال المسلمين ضد الإسلام، يصد عن سبيل الله. فحين يرى غيرُ المسلم المسلمَ يكذب ويخون الأمانة ولا يلتزم بإتقان عمل ولا معايير جودة، هنالك يصبح المسلم غير الملتزم عبئًا على الإسلام وفتنة لغير المسلمين. وهذه أخطر الفتن: الصد عن دين الله عزَّ وجلَّ.

– من الفتن أيضًا: غياب الأسوة والقدوة بين دعاة الأمة، حتى صار العلم في الأعم الأغلب للكسب والشهرة، وليس للتربية وللهداية والإصلاح كما كان وابتعدنا عن الإخلاص وعن همومنا فحجبنا الله عز وجل.

عدة المؤمن في مواجهة الابتلاء

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن الإنسان في معركة الحياة يواجه كثيرًا من الصعاب والشدائد، ويتعرض لكثير من المحن والابتلاءات، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أن هدانا وأرشدنا إلى سبل النجاة، ومنها:

– الاستعانة بالله عز وجل عن طريق الصبر والصلاة، ولنا أسوة في ساداتنا الأنبياء، فسيدنا رسول الله ﷺ كان إذا أحزنه أمر أسرع إلى الصلاة ونادى: «أرحنا بها يا بلال» [أبو داود، ك: الأدب].

وسيدنا يعقوب عليه السلام يعلمنا الصبر وألا نفقد الأمل، فهذا الشيخ الآمل لما عاد إليه أولاده بخبر سيدنا يوسف عليه السلام أنه أكله الذئب كان جوابه: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (يوسف: 18)، وبدلًا من أن يعودوا بابنه الغائب إذا به يفقد ابنًا آخر وَيُضاف جرح جديد إلى جرحه القديم، لكنه يعلمنا ألا نفقد الأمل، فبالإيمان يتجدد الأمل، فقال عليه السلام حين أخبروه بفقد ابنه الثاني: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (يوسف: 83).

ولنا عظيم الأسوة والموعظة في شأن سيدنا أيوب عليه السلام وما حلَّ به من بلاء في أهله ونفسه وماله، فكان منه الصبر والرضا، ولاذ بربه ومولاه داعيًا بأدب النبوة قائلًا: (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأنبياء: 83).

فماذا كانت النتيجة؟ وماذا كانت الثمرة؟

إنه الفيض الإلهي والرحمة الربانية والحنان الودود من رب العالمين، قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) (الأنبياء: 84).

وهذا سيدنا يونس عليه السلام لما ذهب غاضبًا من قومه وركب السفينة، فلما هاجت أمواج البحر واضطربت السفينة اضطروا إلى التخفيف من حمولتها، فألقوا أمتعتهم في البحر، ولم يكن ذلك كافيًا كي تأمن السفينة من الغرق فتشاوروا في إجراء قرعة على إلقاء أحد ركاب السفينة في البحر، ووقعت القرعة بعد إعادتها مرارًا على نبي الله يونس عليه السلام، ولم يكن في ظنه أن القرعة ستقع عليه، فألقى بنفسه في عرض البحر، فالتقمه الحوت، فنادى في الظلمات (ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت) (لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (الأنبياء: 87).

فكان الإنقاذ الإلهي والنجدة الربانية، قال تعالى: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (الأنبياء: 88).

كما توضح الآيات أنه لولا دعاؤه ما فاز بالنجاة، قال تعالى: (فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (الصافات: 143، 144).

كل هذا يؤكد لنا أن النجاة لمن لاذ بالله تعالى.

- الثبات أمام المحن هَدْيٌ إيماني:

الثبات أمام الشدائد والمحن درس قرآني؛ ففي غزوة أحد، تلك الغزوة التي بدأت بنصر للمسلمين وانتهت بهزيمتهم بسبب مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ، وتركهم مواقعهم وانشغالهم بجمع الغنائم، وقد استشهد في هذه الغزوة حمزة ومصعب بن عمير- رضي الله عنهما- وأشيع أن النبي ﷺ قد قُتِل.. كانت المشاعر بعد هذه الغزوة في حزن وألم، وإذا بأبي سفيان يرسل إليهم رسالة يتوعدهم فيها بأنه يحشد الحشود ويجمع الجموع ليرجع إليهم فيبيدهم ويستأصلهم عن آخرهم.

وهنا نتعلم درس الثبات من سيدنا رسول الله ﷺ في مواجهة الشدائد والمحن؛ حيث جمع الصحابة وأفهمهم أن الله لم يتخلَّ عنه، وأن ما حدث كان نتيجة لمخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ وتركهم المواقع خالية، فانكشف ظهر جيش المسلمين، ورفع النبي ﷺ همة الصحابة فكان جوابهم: أنهم سيواجهون أبا سفيان وجيشه وحشوده، فلما علم أبو سفيان بهمتهم وحسن استعدادهم للقتال رجع ولم يحارب، وأنزل الله في ذلك قرآنًا يُتلى؛ ليعظِّم من قيمة هذا الدرس الإيماني: درس الثبات وعدم الانهيار في مواجهة المحن والشدائد، قال تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران: 173).

لقد علمنا القرآن الكريم أن نلوذ بالله في أوقات المحن والشدائد، قال تعالى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة: 156).

فبالصبر والرضا تحصل المثوبة والمعونة والبشرى بالفرج من الله عز وجل.

أما السخط والضجر فلا ينال العبد منه إلا خسران الثواب وفقدان معونة الله عز وجل.

والمتأمل لأحوال الناس في البلاء يرى أن تعب كل أحد من الخلق إنما يكون على قدر

منازعته لمقادير الله سبحانه وعدم صبره وعدم رضاه.

فالسخط باب الكدر والنكد، والرضا باب النعيم والفرج، ويؤكد هذا المعنى حديث النبي ﷺ حيث قال:

«إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» [الترمذي، ك: الزهد/2398].

– ومن المواقف التطبيقية التي تبين ثمار الصبر والرضا هذه المواقف الإيمانية من السنة النبوية:

– عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رضي الله عنه قَالَ: كَانَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ يَشْتَكِي فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ فَقُبِضَ الصَّبِيُّ فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ: مَا فَعَلَ ابْنِي؟ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: هُوَ أَسْكَنُ مَا كَان. فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعَشَاءَ فَتَعَشَّى ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ: وَارُوا الصَّبِيَّ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «أَعْرَسْتُم اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا». فَوَلَدَتْ غُلامًا. قَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: احْفَظْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ. فأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ وَأَرْسَلَتْ مَعَهُ بِتَمَرَات فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَمَعَهُ شَيْءٌ؟» قَالُوا: نَعَمْ، تَمَرَاتٌ. فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا ثُمَّ أَخَذَ مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ وَحَنَّكَهُ بِهِ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللهِ. يقول راوي الحديث وكان من نسله عشرة من الولد كلهم يحفظ القرآن. [البخاري: العقيقة/ 5048].

– عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: أَتَانِي أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلًا فَسُرِرْتُ بِهِ. قَالَ: «لا تُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعَ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ثمَّ يَقُول: اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إلا فُعِلَ ذَلِكَ بِهِ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَحَفِظْتُ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ اسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي، قُلْتُ: مِنْ أَيْنَ لِي خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟! فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَدْبُغُ إِهَابًا لِي فَغَسَلْتُ يَدَيَّ مِنَ الْقَرَظِ وَأَذِنْتُ لَهُ، فَوَضَعْتُ لَهُ وِسَادَةَ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ فَقَعَدَ عَلَيْهَا فَخَطَبَنِي إِلَى نَفْسِي، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بِي أَلا تَكُونَ بِكَ الرَّغْبَةُ فِيَّ وَلَكِنِّي امْرَأَةٌ فِيَّ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا يُعَذِّبُنِي اللهُ بِهِ، وَأَنَا امْرَأَةٌ دَخَلْتُ فِي السِّنِّ، وَأَنَا ذَاتُ عِيَالٍ، فَقَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللهُ عز وجل مِنْك، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَك، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُك عِيَالِي، قَالَتْ: فَقَدْ سَلَّمْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ. فَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَقَدْ أَبْدَلَنِي اللهُ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْرًا مِنْهُ (أي من أبي سلمة) رَسُولَ اللهِ ﷺ». [مسند أحمد/15752].

– كذلك من سبل النجاة لأهل البلاء: التوسل بصالح الأعمال إلى الله عز وجل لكشف الضر وتفريج الكرب.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَرَجَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُم الْمَطَرُ فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللهَ

بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَرْعَى ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحْلُبُ فَأَجِيءُ بِالْحِلاب فَآتِي بِهِ أَبَوَيَّ فَيَشْرَبَانِ ثُمَّ أَسْقِي الصِّبْيَةَ وَأَهْلِي وَامْرَأَتِي، فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً فَجِئْتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمَا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفُرِجَ عَنْهُمْ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ فَقَالَتْ: لا تَنَالُ ذَلِكَ مِنِّي حَتَّى تُعْطِيَنِي مِائَةَ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: اتَّقِ اللهَ وَلا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً. فَفَرَّجَ عَنْهُمْ الثُّلُثَيْنِ، وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَةٍ فَأَعْطَيْتُهُ، وَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ، فَزَرَعْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ أَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّهَا لَكَ، فَقَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟! فَقُلْتُ: مَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ وَلَكِنَّهَا لَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا. فَكُشِفَ عَنْهُمْ». [البخاري، ك: البيوع/2063].

حسن الظن بالله تعالى:

ما أحوج أهل البلاء إلى حسن الظن بالله تعالى، فالله حكيم وفعل الحكيم كله حِكَمٌ وأسرار، قد يدرك العبد بعضها وقد تخفى عليه، وإياك أن تظن أن الله قد ابتلاك لهوانك عليه، بل إن الله ابتلاك ليؤهلك إلى ما أعده لك من المنازل العالية في الجنة في رفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

نعم ابتلاك الله أيها الإنسان؛ لتنال فضل الصابرين، فتعطى من فضل الله في يوم القيامة بغير حساب، قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر: 10).

وفي الأثر: قال ابن مسعود: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير بقوله: سَبَّقَنِي فلان.. أهانني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل. وفي الحديث النبوي الشريف عن أنس عن النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: إن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر، وإن بسط عليه أفسده ذلك؛ وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك؛ وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك؛ وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من يطلب بابًا من العباد فأكفه عنه لكيلا يدخله العجب، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم إني عليم خبير».

أهل البلاء ينتظرون إحدى الحسنيين:

من حلَّ بساحته البلاء فرضي بالقضاء، وصبر على البلاء، وأحسن الظن بالله، وأسلم أمره إلى الله تعالى، فإنه يفوز بإحدى الحسنيين، إما أن ينال مطلوبه ويتحقق مراده

بكشف البلوى، وإما أن ينال الأجر والإحسان في الآخرة ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى: 17)، ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 41).

ومن يدري؟ فكم من فوائد تكمن في الشدائد، قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19). وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: 216).

شبهة مردودة:

ولا يذهبن الوهم إلى أنَّا نريد بما قدمنا أن المسلم إذا أصابه مرض يرضى ويصبر ويستسلم فيدع الدواء والتداوي، وإذا اعتدى معتد على نفسه أو ولده أو ماله أو أهله أو على أية حرمة من حرماته يرضى ويصبر ويستسلِّم فلا يخاصمه ويدافعه بكل ما في الإمكان من وسائل الدفاع المشروعة، وإذا هجم عدو على أرض الوطن يرضى ويصبر ويستسلم فلا يحاربه ويسترد الحق المسلوب بكل قوة.

كيف نريد شيئًا من هذا وقد ثبت أن النبي ﷺ تداوى من مرضه وأمر بالتداوي، فإنه تعالى كما خلق الداء خلق الدواء، وإن الله تعالى شرع الحدود والأحكام والتقاضي؛ لحفظ الحقوق ورد المظالم وردع الظالم، وأخبر النبي ﷺ بأن « من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد». [الترمذي، ك: الديات/ 1341].

وشرع الله الجهاد للدفاع عن الإسلام وأهله، وحرماته وأوطانه.

وإنما نريد منه إذا نابته نائبة ونزلت به نازلة أن ينتزع من قلبه السخط على قضاء الله وقدره، والتبرم بأمره وحكمه، واليأس من رحمة الله وفرجه، ويملأ قلبه إيمانًا بالله ورضًا بقضائه، وصبرًا على بلائه ويأخذ في أسباب كشفها إذا كانت النائبة مما يستطاع دفعها متوكلًا بذلك على الله معتمدًا عليه في كشفها. وقد علم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، وقد قال رسول الله ﷺ: «اعقلها وتوكل» جوابًا لمن قال: أتوكل فلا أعقلها، وأن الله تعالى كما شرَّع المسببات شرَّع الأسباب وأمر بالجري على سننه في الخلق، فاعرف ذلك واعمل به، والله الموفق والمعين.

شبهة أخرى:

بعض الناس تدور برءوسهم أفكار، وتعتريهم خواطر وتساؤلات من بينها: لماذا الصبر؟ وبخاصة في المواقف التي يكون فيها الإنسان على حق. لماذا لا نبطش؟ لماذا لا ننتقم؟ وما الحكمة في الأمر القرآني المتكرر بالتحلي بالصبر، ثم أليس الصبر موقفًا سلبيًّا وضعفًا في الشخصية؟! ونحو ذلك من تساؤلات وأفكار.

ولرد هذه الشبهة أقول وبالله التوفيق:

أولًا: إن من أدب الإيمان أن نكون على يقين كامل بأن الله تعالى حكيم، وأمر الحكيم وفعله كله حكمة، وقد يعجز العقل البشري عن إدراك هذه الحكمة لكنه يؤمن بها؛ لأن مرجعها إلى الله الحكيم الخبير البصير.

ثانيًا: إن نظرة الإسلام للصبر نظرة إيجابية؛ فالصبر الإيماني قوة صامتة تمكّن الإنسان من التحكم في نفسه والسيطرة على نوازع الهوى ومغريات الدنيا .. إنه سمو بمشاعر النفس؛ لترتبط بتوجيه الله تعالى وتستجيب لأمره .. إنه طاقة إيمانية تُخَلِّصُ الإنسان من دوافع الانتقام والانكباب وراء الصيت والشهرة. ولنا خير أسوة وأفضل قدوة في سيدنا رسول الله ﷺ؛ فقد كان ﷺ لا يغضب لنفسه قط، وإنما كان يغضب إذا انتهكت حرمة من حرمات الله عز وجل.

ونصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة توضح أبعاد نظرة الإسلا م الإيجابية للصبر:

– فعن الصبر كقوة تسيطر على النفس ونوازعها، يقول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [البخاري، ك: الأدب/ 5649].

وعن الصبر كطاقة في التحمل، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ». [الترمذي، ك: الفتن/2186].

– وعن الصبر كطاقة دافعة لنيل العلا وتحقيق الطموحات، يقول الله تعالى: (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (فصلت: 35).

وعن الصبر كلون من الثبات أمام الكوارث المفاجئة، يقول النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [البخاري، ك: الجنائز/1203].

ومن هنا يظهر لنا أن الصبر فضيلة لا يتأتى لضعفاء النفوس إدراكها؛ لأن ضعفاء النفوس ملكتهم أنفسهم، وسيطرت عليهم أهواؤهم، فأصبحت تصرفاتهم ردود أفعال حمقاء ليس لها ضابط إلا إرضاء نفوسهم وغرورهم.

أما المؤمنون الصادقون فإنهم يملكون نفوسهم عند الغضب، ويثبتون أمام المحن والكوارث دون سخط أو ضجر، ويتأدبون بأدب القرآن، قال الله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (البقرة: 156، 157).

وحسب الصابرين من الفضل أن الله جعل جزاءهم يوم القيامة بلا حدود، قال الله تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر: 10).

قال الشيخُ علي عقل (رحمه الله تعالى) حينما طُلِبَ منه أن يَرْتَجِلَ قصيدة على وزن البيت الذي يقول:

فقال رحمه الله:

* * *

الوعد الحق

- النداء الخالد.
- هل نُشْغَل بالنعمة عن المنعم؟
- من الغَرُور؟ وبِمَ يَغُرُّنا؟
- يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟

* * *

من الحقائق الإيمانية التي يؤكدها الله تعالى للناس كافة، هذه الحقيقة التي جاءت في الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) (فاطر: 5).

هذا نداء كريم من الله تعالى إلى الناس كافة، وإن كان كل نداء يأخذ شرفه وقدره من قدر المنادي، فالمنادي هنا هو الله رب العالمين، والمؤمن من بين الناس ينصت لنداء ربه بتعظيم وتقديس وإجلال، ويستجيب لندائه محبةً في رضاه، وطمعًا فيما عند الله تعالى من عظيم الثواب.

والله تعالى حين ينادي عباده، فإنما يأمرهم بخير وينهاهم عن شر، وفي هذا النداء الكريم الذي نحن بين يديه يؤكد الله حقيقة إيمانية ثم ينهانا بعدها ويحذرنا. فأما الحقيقة التي يؤكدها الله تعالى فهي: (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) (لقمان: 33).

واللافت للانتباه هنا أن القرآن الكريم فيه وعدٌ ووعيد.

ووعد الله يكون للمؤمنين بالنعيم والخير في الدنيا والآخرة.

ووعيد الله يكون للكافرين بالعذاب في الدنيا والآخرة. والله كريم مع عباده؛ فقد يعفو عن وعيده بالعذاب تفضُّلًا وتكرُّمًا، لكنه سبحانه لا يرجع عن وعده أبدًا، فوعد الله ثابت لا يتأخر ولا يتخلف (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) (فاطر: 5).

فكل ما وعد الله به أهل الإيمان من سكينة وطمأنينة وبركة وقناعة وسعادة وسرور في دنيا الناس، كل ذلك حق.

وكل ما وعد الله به أهل الإيمان من جنة ونعيم في الآخرة حق وصدق؛ قال تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل: 97).

ولمَّا كان النعيم الذي وعد الله به أهل الإيمان في الدنيا والآخرة لا يتأتى له مثيل ولا نظير، ولا يدانيه نعيم آخر؛ فينبغي ألا يفتن الإنسان بما في الدنيا من متـاع زائـل أو

يغفل عن زاد الآخـرة أو ينشغل عن طاعة ربه.

(فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...) (لقمان: 33).

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط». [مسلم، ك: صفة القيامة /5021].

ثم يقول الله تعالى بعد أن حذَّرنا من الغرور في الدنيا: (وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) (فاطر: 5). والمراد بالغرور هنا هو الشيطان الرجيم الذي يزيّن للناس سوء أعمالهم، فيوسوس في صدورهم، ويعمل على إضلالهم، ويتدرج معهم في المعاصي ليصل بهم إلى الكفر والعياذ بالله تعالى، ثم يتبرأ الشيطان بعد ذلك، قال الله تعالى: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (الحشر: 16).

* * *

ما هذه الدنيا؟!

- دنيا ملعونة ودنيا مذمومة، كيف؟!
- ما الذى أهلك بني إسرائيل؟
- كيف تأتينا الدنيا وهي راغمة؟!
- ما أهونها على الله!
- ما الفقر أخشى عليكم!
- يقول ابن آدم: مالي مالي!
- أتحبون أنه لكم؟
- ذلك متاع الحياة الدنيا!!
- السعيد من وعظ بغيره!!
- أنا، ولي، وعندي!!
- دار في بلد المذنبين وسكة الغافلين.

* * *

كل حدث من أحداث الحياة– أي كل ما قبل الموت– فهو دنيا؛ لأنه قريبٌ وكلُّ ما بعد الموت هو الآخرة.

فكل ما لك فيه حظٌّ عاجل ونصيبٌ قريبٌ وغرض دانٍ وشهوةٌ ولذة عاجلة الحال قبل الوفاة، فهي الدنيا.

إلا أنه ليس كل ما لك فيه حظٌّ وميل مذمومًا، وإنما ينقسم إلى ثلاثة:

– الأول: ما يصحبك إلى الآخرة، كالعلم لوجه الله، والعمل الخالص لله، وهو من الدنيا ولكنه محمود، والنبي ﷺ قال: «حبب إِلَيَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيبُ، وجعلت قرة عيني في الصلاة». [النسائي، ك: عشرة النساء/3878].

– الثاني: كل ما فيه حظٌّ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة؛ كالتلذذ بالمعاصي والتنعم بالمباحات الزائدة على الحاجة. فهذا كله من الدنيا المذمومة، وهي المحظورات من المعاصي.

– الثالث: وسط بين الطرفين، وهو كل حظ عاجل ولكنه معين على أعمال الآخرة خادم لها، كقدر القوت وكل ما يلزم الإنسان للبقاء في الحياة، وهو وسيلة لفعل الطاعات؛ لذلك فهو ليس من الدنيا المذمومة، أما إن كانت النية فيه ترجع إلى الحظِّ العاجل والمتعة القريبة والتنعم المجرد دون نية التقوِّي على الطاعة فهو من الدنيا

المذمومة.

فالدنيا مذمومة إلا ما أعان منها على الخير والتقوى؛ لذلك قال النبي ﷺ: « مَنْ طلب الدنيا حلالًا مكاثرًا مفاخرًا لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافًا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

إذن.. فالدنيا حظٌّ نفسك العاجل الذى لا حاجة فيه لأمر الآخرة. وعبَّر الله عن هذا الحظِّ بالهوى فقال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فإن الجنة هي المأوى(41)) (النازعات: 40، 41).

ومجامع الهوى في خمسة أمور كما في قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ) (الحديد: 20).

ثم نجد أن الله قد وضح الأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة، وهي سبعة في قوله تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (آل عمران: 14).

وحكمة جعل هذه الزينة إنما هي لاختبار الإنسان؛ لقوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الكهف: 7).

وقوله: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الملك: 2).

كل هذه المعطيات إنما تدفع العاقل اللبيب إلى أن يوجه القصد خالصًا لله، وإن كان ذلك يعرِّضه في بعض الأحيان لحرمان من لذة عاجلة في الدنيا، وما أهونها على الله!!.

مرَّ رسولُ الله ﷺ على شاة ميتة فقال : «أترون هذه الشاة هيِّنةً على أهلها؟» قالوا: من هوانها ألقوها. قال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء». [الترمذي، ك: الزهد: 2242].

والنبي ﷺ يقول:«الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم». [الترمذي، ك: الزهد/ 2244].

وقوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». [كنز العمال/6114].

وقوله : «وإن الدنيا حلوةٌ خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون». [مسلم، ك: الذكر/ 4925].

إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب.

وقال النبي ﷺ: «من كانت الدنيا هَمَّه فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». [الترمذي، ك: صفة القيامة/2389].

وفي الحديث القدسي: «يا بن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنًى وأملأ يدك رزقًا. يا بن

آدم، لا تباعد مني فأملأ قلبك فقرًا وأملأ يدك شغلًا». [الترمذي، ك: صفة القيامة/2390].

وهكذا، يتضح مما سبق أن الدنيا ملعونة إلا ما أدى إلى الآخرة من علم وعمل، وأن الحياة كلها- بخيرها وشرها- ابتلاءٌ من الله تعالى لعباده، فمن شغلته الدنيا عن الآخرة فقد سقط في الفتنة، ومن شغلته الآخرة أتته الدنيا راغمة وحاز الخير كله في الدنيا والآخرة.

مواقف من السنة النبوية المطهرة توضِّح لنا الوجوه المختلفة لفتن الدنيا

– بَعَثَ النبيُّ ﷺ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْن، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَتْ صَلاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الْفَجْرَ انصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ: «أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيءٍ؟ قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ الله. قَال: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللهِ ما الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».[البخارى، ك: الجزية/ 208].

– وعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَقَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِيَ مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُم مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا». [مسلم، ك: الزكاة/ 1744].

– وعَنْ مُطَرِّف عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا بْنَ آدمَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!».[مسلم، ك: الزهد والرقائق/ 5258].

– وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّت فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيءٍ وما نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ. لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَ اللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ». [مسلم، ك: الزهد والرقائق/ 5257].

وآيات القرآن تؤكد لنا حقيقة الدنيا قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس: 24).

وقال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً) (الكهف: 45، 46).

وقال تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ

الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران: 14).

ثم إن السعيد من وُعِظَ بغيره، فليكن لنا عبرة بمن أهلكتهم الدنيا حين افتتنوا بها وأنزل الله في شأنهم قرآنًا كي تظل الموعظة باقية إلى يوم القيامة ينتفع بها العقلاء في كل زمانٍ ومكان.. فهذا «قارون» جاءت فتنته من جهة المال والسلطان، قال تعالى: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ) (القصص: 76 – 80).

ماذا كانت النتيجة؟! لقد خسف الله به وبداره الأرض، قال تعالى: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) (القصص: 81).

– وهذا فرعون طغى وتجبر حتى قال: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) (النازعات: 24–26).

– وهذا الذي أَلَحَّ على رسول الله أن يدعو له بسعة المال، ورسول الله ينصحه: «قليل يكفيك خير من كثير يطغيك». فلما جاءه المال بخل بالزكاة ومنعها فغضب الله عليه وأنزل فيه قرآنًا، قال الله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) (التوبة: 75 – 77).

وغير ذلك كثير، فكل من افتتن واغترَّ بالدنيا كانت عاقبته الخسران والهلاك.

وهنالك من مواقف العظة والعبرة التي تأتي تطبيقًا عمليًّا لهذه المعاني منها: موقف الإمام علي– رضي الله عنه – من الرجل الذي انكبَّ على الدنيا فشغل بها ولم ير إلا جمع المال وحيازة الدنيا، حيث أقبل على الإمام علي – رضي الله عنه – في درس علمه، يطلب منه أن يكتب له عقد دار عظيمة اشتراها، دون تقدير لمكان درس العلم وحق الحاضرين في هذا الوقت.

وحاول بعض الحاضرين منع الرجل، لكنَّ الإمام عليًّا– رضي الله عنه– أراد أن يجعل من موقف الرجل المفتون موعظة نافعة، فنادى الرجل وطلب المداد والرقعة التي يكتب فيها، ثم بدأ يكتب دون أن يسأل الرجل عن بيانات بشأن الدار فلم يسأله عن ثمنها ولا عن حدودها ولا عن اسم البائع أو المشتري ونحو ذلك من المعلومات الأساسية لكتابة

العقد، بل كتب مباشرة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، فقد اشترى ميتٌ من ميت دارًا تقع في بلد المذنبين وسكة النادمين، والدار لها حدود أربعة:

– فأما حدها الأول، فالموت.

– وأما حدها الثاني، فالقبر.

– وأما حدها الثالث، فالحساب.

– وأما حدها الرابع، فإما إلى جنة وإما إلى نار»، فقال الرجل: يا إمام تكتب لي عقد دار أم عقد مقبرة؟!

وفي هذا يقول الحكيم:

* * *

الكفر ومتاع الدنيا

- لولا أن يكون الناس أمة واحدة..!!

– هل إقبال الدنيا دليل محبة الله؟

– ما قيمة الدنيا عند الله؟!
– موقف وعظة (بين رسول الله ﷺ وعمر رضى الله عنه).
– كيف كان حال مصطفانا مع الدنيا؟

* * *

لفت انتباهي تركز دعاء عامة الناس في طلب الدنيا وسعة العيش وكثرة الأموال والعلو في المناصب والصيت الذائع والشهرة البالغة.

وحتى إذا التقى كثير من الناس بصالح أو تقي طلبوا منه الدعاء لهم ولذويهم وأهليهم بأمور دنيوية، ويصف الناس من وسِّع له في رزقه وعلا منصبه وذاع صيته بأنه فالح وربنا رضي عنه، وهذا الكلام له معنى ومغزى وهو أن الناس تجعل سعة الدنيا في الأموال والأولاد والمناصب ونحو ذلك، تجعلها علامة من علامات رضى الله تعالى وحبه وعنايته بالعبد. هذا اللون من التفكير والاعتقاد يتلاشى أمام آيات القرآن الكريم.

فعلى النقيض من هذا الفكر يقرر القرآن حقيقة غالية نلمحها من خلال تدبر قول الله تعالى : (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) (الزخرف: 33–35).

أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاء الله الدنيا من مال وسلطان ومتاع دليل على محبة الله تعالى فيجتمع الناس على الكفر لأجل المال والسلطان ومتاع الدنيا.

أي لولا ذلك لجعل الله للكافرين لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج أي: مصاعد يُرى ظاهرها من باطنها، وجعل لبيوتهم أبوابًا لها أغلاق خاصة وزادهم من متاع الدنيا بالسرر التي يتكئون عليها تنعمًا وتلذذًا من الذهب وغيره من المعادن النفيسة.

ثم تقرر الآية الحقيقة الإيمانية الغالية، وهي أن هذا المتاع زائل، ولا يساوي في ميزان الله تعالى شيئًا .. أما النعيم الحق في الجنة فهو عند ربك للمتقين.

فهذه مقابلة ومقارنة بين أقصى ما يحصل عليه الكافرون في الدنيا من متاع من باب تعجيل طيباتهم في حياتهم الدنيا، وبين النعيم الدائم الذي لا ينقطع. وهو نعيم الآخرة في الجنة .. عند الله عز وجل وهو للمتقين وحدهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

فمتاع الدنيا كله لا يساوي عند الله تعالى شيئًا له قدر أو له قيمة، قال النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماءٍ أبدًا». [الترمذي، ك: الزهد/ 2242].

ويخبر النبي ﷺ عن قدر الدنيا في الآخرة حيث روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعلُ أحدكم أُصْبُعَه في اليم فلينظر بم يرجع؟». [مسلم،ك: الجنة/ 5101].

موقف وعظة:

رأى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- رسول الله ﷺ نائمًا على حصير قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله: هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس، وقال: «أَوَفِي شكٍّ أنت يا بن الخطاب»، ثم قال ﷺ: «أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» وفي رواية قال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا وتكون لنا الآخرة». [البخاري، ك: التفسير/4532].

فإذا كان هذا حال أتقانا وأخشانا لله نبيّنا الذي اصطفاه الله، فكيف بك أيها المؤمن ترى الفقر علامة غضب من الله وترى الغَنى والدنيا علامة رضا من الله؟ إنما الأمر في الحقيقة اختبار وابتلاء.

* * *

الإنسان والأسئلة الخالدة

- ما هذي الحياة؟
- وما الإنسان فيها؟
- أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟
- هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا؟
- أوصاف ذميمة تحيط بالإنسان حين يتخلى عن الإيمان.
- أوصاف حميدة للإنسان حين يؤمن.
- سر التحول من الضلال إلى الهداية.
- كيف تنال بركة القرآن الكريم؟
- بركة القرآن لمن؟
- الحبر اليهودي يختبر النبي ﷺ.

* * *

في ليلة شاتية طويلة، طوى الذهن الأيام الطوال من عمر مضى، مزدحم الأحداث: آمال تتحقق، رغبات تتبدد، رفاق وأحباب يتخطفهم الموت، مواليد جديدة تحمل أمل الحياة. وهكذا تتلون الحياة: فقر من بعد غنى، وغنى من بعد فقر، وصحة من بعد مرض، ومرض من بعد صحة، ظلم هنا وفقر هناك، وتطوينا الأيام كما طوت من قبلنا .. ما هذي الحياة؟ وما الإنسان فيها؟

لعل الملائكة كانت قلقة على مستقبل الإنسان على هذه الأرض حين قالت: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) (البقرة: 30).

وكان الجواب من العلي الأعلى:

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (البقرة: 30).

ويوجه الله تعالى الإنسان ويذكِّره بحقائق غالية من شأنها إيقاظ الإنسان من غفلته، وماذا يملك الإنسان أمام هذه الاستفهامات القرآنية الخالدة، يقول الله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ) (المؤمنون: 115).

(أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) (القيامة: 36).

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثية: 21).

وتعالى الله أن يخلق الإنسان أو الكون عبثًا!!

تعالى الله أن يترك الإنسان دون حساب!!

كما يذكّرنا القرآن الكريم بلحظات وأوقات مرت وأزمنة مضت، لم يكن للإنسان فيها ذكر ولا وجود، وعلى العاقل أن يسأل نفسه: من الذي جعل للإنسان ذكرًا ووجودًا؟!

لقد كان الإنسان قبل فضل الله حفنة من تراب؛ ثم أنعم الله وتفضَّل على حفنة التراب فسوَّاها؛ ثم نفخ فيها من روحه، قال تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (ص: 72).

وبعد أن تفضَّل الله تعالى على الإنسان فخلقه وجعل له ذكْرًا ووجودًا بَيَّنَ ووضَّح له مهمته في هذا الوجود، فقال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56).

ويصنِّف القرآن الكريم الناس حسب استجابتهم لهدي الله وتوجيهه إلى قسمين، ويرسم لذلك صورتين، يمكن من خلالهما تفسير مظاهر التناقض التي نراها في هذه الحياة:

– الصورة الأولى: توضح الإنسان حين يتخلى عن هدي الله وتوجيهه؛ حين يتخلى الإنسان عن الإيمان وعن مهمته في هذا الوجود، وهي مهمة العبودية الخالصة لله رب العالمين.

ويمكن الوقوف على أهم ملامح هذه الصورة من خلال الآيات التالية:

(إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم: 34).

(وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً) (الإسراء: 11).

(وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) (الكهف: 54).

(إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) (الزخرف: 15).

(إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) (المعارج: 19).

(إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) (العاديات: 6).

(إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) (العصر: 2).

والحديث عن الطاغية الظلوم الكَفَّار الخاسر الهلوع الكنود حديث عن الإنسان حين يُتْرَكُ لنفسه وهواه، حين يستبد به الشيطان في غيبة الإيمان.

وبعد هذه الأوصاف الذميمة يعرض القرآن لنا الصورة الثانية المضيئة.

– الصورة الثانية: وهي صورة الإنسان حين يؤمن، ويظهر عليه أثر الإيمان في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، وتُظهر الآيات القرآنية هذه الأوصاف الطيبة بوضوح؛ كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال: 2).

ثم هناك داخل مجال الإيمان منازل ودرجات للمؤمنين عند الله تعالى وضحها القرآن

الكريم، منها: درجة التقوى، ودرجة الصبر، ودرجة الإحسان، ودرجة الأبرار.. وغيرها من المنازل الإيمانية.

وكل هذا يعطينا إشارة واضحة إلى سر الصلاح والفلاح والتحول من الضلالة إلى الهداية.. إنه الإيمان.. فبدون الإيمان يتلطخ الإنسان بالأوصاف الذميمة.. وبالإيمان يتحلى المؤمن بالأوصاف الحميدة.

ومن هنا يمكن أن ندرك بوضوح أن قيمة الإنسان غالية وعالية حين يؤمن، وتؤكد الآيات القرآنية هذا المعنى في مواضع كثيرة، منها قول الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات) (المجادلة: 11).

وقوله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: 13).

ويقدم لنا القرآن الكريم صورة واضحة عن منازل المؤمنين ودرجاتهم من خلال بيان منزلتهم عند الله تعالى، ويحدثنا القرآن عن المتقين، والمحسنين، وأصحاب اليمين، والسابقين، والأبرار، وعباد الرحمن.. إلخ.

ويربط القرآن الكريم بين الجزاء الأوفى للمؤمنين ومنهج المؤمنين في حياتهم وأخلاقهم؛ كي ننتهج نهجهم ونتأدب بأدبهم ونتخلق بأخلاقهم.

ولعل سائلًا يسأل: ما السبيل إلى هذه المنازل؟ وكيف نتحصل على بركتها؟ هل يكفي إعلان كلمة الإيمان؟!

لقد فَرَّق القرآن بين صنفين من الناس، كلاهما قال: ربنا الله.

فالصنف الأول: قالها خداعًا ولم يكن لها أثر في حياته، فقال الله في حقه:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) (البقرة: 8).

أما الصنف الثاني: فقد أعلن إيمانه بصدق، وكان للإيمان أثر في حياته، فقال الله فيه: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (فصلت: 30).

وهكذا تؤكد الآيات حقيقة مهمة؛ وهي أن بركة القرآن لمن يعمل به .. فالعمل الصالح بعد الإيمان الصادق هو السبيل إلى تحصيل هذه المنازل الإيمانية.

هذا المعنى يؤكده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .. وهذه الحقيقة الهامة يمكن أن تصل إلينا من خلال التأمل المتأني للآيات القرآنية التالية: (الـم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة: 1، 2).

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الإسراء: 82).

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (النمل: 1، 2).

وهذه الآيات الكريمة تُثْبِتُ للقرآن الكريم الأوصاف التالية: أنه هدى، أنه شفاء، أنه رحمة، أنه بشرى.

ومن نصوص السُنَّة النبوية تأمل قول النبي ﷺ: «ستكون فتن»، قيل: ما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما بعدكم، وخبر ما قبلكم، وحكم ما بينكم». [الترمذي، ك: فضل القرآن/ 2831].

وهنا يثبت الرسول ﷺ للقرآن وصفًا آخر، بالإضافة إلى الأوصاف السابقة، هو أنه المخرج من الفتن.

والسؤال الآن: كيف يتأتى لنا أن ننال هذه البركات (الهداية، الشفاء، الرحمة، البشرى، المخرج من الفتن)؟

إن الحفظ مطلوب .. لكنه وحده لا يكفي، فحفظ القرآن وحده لا يرفع جهلًا. وإنما بالفهم مع الحفظ، وبالعمل بعد الفقه. نعم ثلاث خطوات: قراءة وحفظ .. ثم فهم وفقه .. ثم عمل وتطبيق.

ولعل هذا هو السر في أن الله تعالى ختم الآيات السابقة التي أثبت فيها للقرآن أوصاف الشفاء والرحمة والبشرى، ختمها بأوصاف محددة لمن ينالون هذه البركات وتلك الثمرات القرآنية: فقال سبحانه وتعالى: (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)، (شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)، (وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ).

فهل أدركت معي كيف جعل الله تعالى بركات القرآن وثمراته لأهل التقوى والمؤمنين العاملين؟

حقًّا إن بركة القرآن لمَنْ يعمل به.

ولقد حذَّر القرآن الكريم من أن يتحول الدين إلى كلام تتغنى به الألسنة دون التزام به في واقع عملي تطبيقي، ولقد ضرب الله مثلًا قاسيًا لمن يعلم ولا يعمل، فقال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) (الجمعة: 5).

وقال الله تعالى في شأن الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق ولم يستجيبوا له في واقعهم العملي في شتى أمور حياتهم:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الأعراف: 175، 176).

ولا يزال القرآن الكريم يحمل على هؤلاء الذين جعلوا الدين كلامًا دون تطبيق لما يقولون، فقال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ) (الصف: 2، 3).

بهذا كله يتأكد لنا أن فلاح الإنسان ونجاحه في استجابته لأوامر الله تعالى، والالتزام

بها في واقعه العملي.

ولا يخفى على عاقل أثر الجانب العملي التطبيقي في الدين كله، فهو أجدى وأكثر فاعلية من الجانب النظري، وحسبنا أن نتأمل انتقال الإسلام وانتشاره في إفريقيا كيف تم على أيدي التجار المسلمين؛ لصدقهم وأمانتهم والتزامهم بسلوك الدين الحنيف، بأكثر مما انتشر على أيدي الدعاة بالكلمة.

وهنالك الكثير من الأمثلة من حياة الدعوة لسيدنا النبي ﷺ نلمح فيها أن نسبة كبيرة ممن أسلموا كان السبب في إسلامهم أفعال النبي ﷺ. من ذلك:

- إسلام الحَبْر اليهودي (زيد بن سعنة) لما تأكد من حلم النبي ﷺ على الجاهلين، وأن رحمته ﷺ تسبق غضبه.

وغير ذلك من الأمثلة التي تؤكد أهمية الجانب العملي التطبيقي في الدين.

إن من يعلم ولا يعمل يحرم نفسه من الانتفاع بما يعلم، ومثله كمثل رجل مريض ذهب إلى الطبيب فشخَّص له الدَّاء ووصف له الدواء.. ثم أحضر المريض الدواء، لكنه وضعه بجواره ولم يتناول منه شيئًا رغم علمه بأن فيه الشفاء.

فكيف لمثل هذا المريض أن ينتفع بدواء لم يشربه؟

فالراغب في الانتفاع بالدواء (القرآن والسُّنَّة) عليه أن يسارع بشرب الدواء.

* * *

الإنسان بين هدايتين

- لَمَّا ربنا يهديني!!
- هداية الإرشاد في عالم الأسباب.
- هداية التوفيق من رب العباد.
- من الفائز بالهداية؟ ومن المحروم منها؟
- كيف يسر الله أسباب الهداية للناس جميعًا؟

* * *

كثير من الناس إذا دعوته إلى طاعة مفروضة، أو أمرته بالإقلاع عن معصية، يقول لك: لمَّا ربنا يهديني، أو يقول: لو شاء الله لهداني..!! وهكذا سريعًا يُخرِج هذا الإنسان نفسه من دائرة المسئولية، ويلقي بالمسئولية على الله تعالى.

وفضلًا عما في هذا التفكير والسلوك من سوء أدب مع الله تعالى، فإنه مغالطة مع النفس في إطار خدعة شيطانية لصرف الناس عن طاعة الله.

وسوف يَردُّ الله هذا التفكير على أصحابه يوم القيامة، ولن يقبل عند الله تعالى، قال الله عز وجل: (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (الزمر: 56– 59).

حقًّا إن الهداية من الله تعالى، وإن هدى الله هو الهدى، لكن القرآن الكريم يميز بين هدايتين:

– الهداية الأولى: هداية أجراها الله عن طريق الأسباب، وهي هداية الإرشاد والبيان، فجعل الله القرآن الكريم سببًا لهداية الناس، قال الله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء: 9).

وجعل الله الأنبياء أسباب هداية يرشدون الناس إلى ما يقربهم من الله تعالى، قال تعالى بشأن سيدنا محمد ﷺ: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى: 52).

كذلك العلماء، ورثة الأنبياء، جعلهم الله أسباب هداية، قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) (السجدة: 24).

لقد يسَّر الله أسباب الهداية للناس جميعًا، فأنزل الكتب السماوية، وبعث النبيين وأرسل الرسل، وجعل العلماء ورثة الأنبياء يدلون الناس ويرشدونهم.

فمن استجاب لهداية السبب فاتبع القرآن واقتدى بسيدنا محمد ﷺ وجاهد نفسه

وهواها تفضَّل الله عليه ومنحه منزلة أخرى من منازل الهداية، لا تتأتى هذه المنزلة بواسطة مخلوق، بل بتوفيق الله تعالى، وتلك هي:

– الهداية الثانية: هداية التوفيق، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (العنكبوت: 69).

وقال: (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الأعراف: 158).

وقال: (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) (النور: 54).

أما إذا انصرف العبد وأعرض عن هداية الله، فترك أسباب الهداية، ولم يتبع القرآن ولم يقتد برسول الله ﷺ فهو محروم من الهداية ومن توفيق الله تعالى.

قال تعالى: (وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة: 80)، وقوله: (وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الجمعة: 5) والآيات في ذلك كثيرة.

* * *

الإنسان بين شقوتين

- ولم نجد له عزمًا.
- العناية الإلهيـة تدرك آدم.
- شقوتان لابن آدم في دنيا الناس.
- كيف النجاة من كل شقاء؟

* * *

اقتضت حكمة الله تعالى أن يعهد إلى آدم بالأكل من كل الثمار بالجنة سوى شجرة واحدة؛ لتكون التربية الإلهية لعزم آدم وإرادته في الالتزام بهدي الله تعالى، والتحرر من رغائب النفس وعدم الضعف أمام المغريات. وتلك هي التجربة الأولى التي يخفق فيها آدم ويغلب عليه الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبة في السلطان، وهكذا زين له الشيطان: (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى) (طه: 120).

وكانت هذه التجربة بمثابة تمهيد وتهيئة ليكون آدم خليفة بعد ذلك. ولقد أدركت العناية الإلهية آدم فاجتباه ربه وهداه. ثم صدر الأمر الإلهي إلى الخصمين أن يهبطا إلى الأرض مع تنبيه آدم بعداوة الشيطان: (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) (طه: 123)، ولقد بيَّن القرآن الكريم أن النزول إلى الأرض والخروج من الجنة يتبعه شقاء وضلال، وتعب وعناء: (فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) (طه: 117). فالشقاء إذن ينتظر آدم خارج الجنة. ونلمح من سياق آيات القرآن الكريم أن هناك تمييزًا بين شقوتين لابن آدم في دنيا الناس:

- الأولى: شقوة عامة: وهي الكدح والتعب لتحصيل الأرزاق وإنجاز الأعمال.. وتحمل الآلام التي تصيب الإنسان لِفَقْد عزيز أو لمرض شديد.. أو لعدم وفاء صديق.. إلخ.

وإلى هذه الشقوة أشار القرآن الكريم في آيات، منها: (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ) (الانشقاق: 6).

- الثانية: شقوة خاصة: وهي الشقوة التي تترتب على المعصية. وتفهم هذه الشقوة من سياق الآيات التي تتحدث عن الأثر الناتج عن انحراف العبد عن هدي الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) (طه: 124).

ولا سبيل أمام الإنسان للسلامة من الشقاء في الدنيا إلا باتباع هدي الله تعالى: (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى) (طه: 123)، فمن استجاب لهدي الله تعالى أبدله الله مكان حياة الشقاء حياة النعيم والطمأنينة والسكينة والسعادة.

قال الله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) (النحل: 97)، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) (فصلت: 30، 31).

أيها المؤمن الكريم.. أنت في أمان من الشقاء باتباعك لهدي الله تعالى.. فالشقاء ثمرة للضلال ولو كان صاحبه غارقًا في المتاع، فهذا المتاع ذاته شقوة، شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة، وما من متاع حرام إلا وله غصة تعقبه وقلق وحيرة تحيط به. ولا ينبغي أن نغفل الشقوة الكبرى يوم القيامة لأهل الكفر والشرك والعصيان.

أما من اتبع هدي الله تعالى فهو في نجاة من الضلال والشقاء في الدنيا وفي الآخرة.

اللهم إنا نعوذ بك من درك الشقاء ومن خيبة الرجاء ومن زوال النعمة وفجأة النقمة.

* * *

بين إرضاء اللَّه وإرضاء الناس

- الدنيا مغريات وفتن.
- المؤمن بين إرضاء الله وإرضاء الناس.
- غاية مستحيلة..!!
- بشرى: مرضاة الله لمن؟!

* * *

مغريات كثيرة تغشى الناس بضيائها من بعيد، كمغريات المال والمنصب والشهرة والقوة، وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل. وكم من أناس انساقوا وراء هذه المغريات طلبًا لرضاء الناس، وتحقيقًا للمصلحة المادية فكانت خسارتهم عظيمة، وفي قمة هذه الخسارة خسارتهم لرضا الله تعالى.

والمؤمن الفطن إذا رأى نفسه متحيرة بين الله والناس جاهد نفسه وهواها واستعان بالله واستعاذ به، وعلم يقينًا أن كل ما فاته دون الله تعالى فهو يسير وأن كل ما جاءه سوى الله فهو قليل؛ يقوّي هذا المعنى ويؤيده ما رواه الطبراني عن جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من أسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سخطه. ومن أرضى الله في سخط الناس رضي الله عنه، وأرضى من أسخطه في رضاه، حتى يزينه ويزين قوله وعمله».

وإلى هذا المعنى تشير آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: (أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (التوبة: 13).

وقوله تعالى: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ) (النساء: 108).

ولنا أن نتأمل ونتدبر واقع حياة صحابة رسول الله ﷺ الذين تركوا أموالهم وديارهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، ماذا كانت النتيجة لموقفهم هذا؟ لقد نصرهم الله، وأيدهم بجنده، وأعزهم بعزته، وعَطَّرَ الله ذكرهم في الدنيا والآخرة، وجعلهم مصابيح للناس في كل زمان ومكان.

في المقابل نجد أن هناك الملايين من الناس اندثروا في التراب، فلا ذكر لهم ولا حظَّ لهم في الآخرة، بل وربما كان بعضهم- كالمنافقين- موضع لعنة إلى يوم القيامة.

يضاف إلى هذا أن إرضاء الجميع غاية مستحيلة، وليس مطلبًا لعاقل أبدًا؛ لذلك ينبغي للإنسان ألا يجعل الناس أمامه في المقدمة بل يجعل رضا الله تعالى هدفه ومقصده.

وذلك- فيما رواه الترمذي- أن رَسُول الله ﷺ قال: «لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ

أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا». [الترمذي، ك: البر/ 1930].

نعم.. ينبغي للإنسان العاقل ألا يتلوَّن ولا يتقلب مع تيار المصالح المادية، يصفق لكل قائل، ويتمسح بكل قوي، ويتساقط صريعًا على أعتاب المنافع الدنيوية. لقد رفع النبي ﷺ بصائر المؤمنين إلى المنزلة العالية، إلى الإيمان بالله تعالى، فلا يصدر من المؤمن إلا ما وافق إيمانه.

* * *

إن ربي رحيم ودود

- كيف يتودد الله إلى عباده؟
- يا كريم العفو يا رب!
- من وده سبحانه..!!
- حتى يظن العبد أنه قد هلك.. !!
- سبحانه لا يعجل بالعقوبة!!

* * *

جرت العادة في دنيا الناس أن يتودد الأدنى إلى الأعلى؛ فيتودد الفقراء إلى الأغنياء، ويتودد أصحاب الحاجات إلى ذوي السلطان، ويتودد الضعيف إلى القوي، وهذا حال عامة الناس، أما الصالحون فيتوددون إلى الله عز وجل.

وأن يتودد العبد إلى خالقه ورازقه فهذا أدبٌ وشرع، أما أن يتودد الله الغني الكبير المتعال القوي العزيز إلى عباده الفقراء- وكلنا إلى الله فقراء- فهذا منَّة وفضل منه سبحانه، والله يتودد، يتحبب، يتحنَّن إلى عباده بنعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى!! فيتودد إليهم بستره فلا يفضحهم في الدنيا، وإن صدقت توبتهم لا يفضحهم في الآخرة. ويتودد إليهم بعفوه فلا يعاقبهم إذا تابوا وأنابوا إليه، بل يغفر الزلات ويعفو عن كثير. لما قال سيدنا إبراهيم خليل الرحمن: يا كريم العفو يا ربّ، قال له سيدنا جبريل: أتدري ما كرم عفو الله يا خليل الرحمن؟!

فقال سيدنا إبراهيم: الله أعلم. فأخبره سيدنا جبريل بقوله: إنه من كرم عفوه- سبحانه وتعالى- أنه إذا نظر إلى السيئة غفرها ثم أبدل مكانها حسنة، والله تعالى يقول في القرآن في شأن التائبين الصادقين في توبتهم: (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (الفرقان: 70).

ومن وُدِّهِ سبحانه أنه يؤنس العبد التائب إليه؛ كي لا يقع في شعور الألم والخجل من المخالفة والتقصير الذي بدر منه في حق الله، فيؤنسه الله تعالى بكرمه وعفوه، وانظر إلى هذا النداء الودود للمقصرين والمسرفين في حق الله، لقد أضافهم الله سبحانه وتعالى إلى نفسه؛ ليوسّع لهم باب الرجاء والأمل في عفو الله ومغفرته، وذلك هو قوله سبحانه: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر: 53).

ومن وُدِّهِ سبحانه في يوم القيامة أنه يدني عبده إليه كما ورد في الحديث الصحيح، فيقرره بذنوبه كلها ذنبًا ذنبًا حتى يظن العبد أنه قد هلك، حينئذ يقول الله- عز وجل- له: «عبدي سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ولا أفضحك بين خلقي».

ومن وُدِّهِ سبحانه أنه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليَل.

ومن وُدِّهِ سبحانه أن من أعرض وتولَّى عنه ناداه من قريب، ومن أقبل عليه تائبًا تلقاه من بعيد.

ومن وُدِّهِ سبحانه ألا يعجل العقوبة، بل جعل لملَك الحسنات سلطانًا على ملَك السيئات؛ فإذا اقترف العبد خطيئة أمر ملَكُ الحسنات ملَكَ السيئات أن ينتظر لعلَّ العبد أن يستغفر ويتوب، فإذا تاب العبد كتبها ملك اليمين حسنة، وإلا كتبها ملك السيئات سيئة واحدة، فإن فعل العبد حسنة كتبها ملك اليمين عشر حسنات.

ومن وُدِّهِ سبحانه ما ألقى في قلب الأم والأب من مودة وحنان للأبناء.

ومن وُدِّهِ سبحانه أن جعل بين الزوجين مودةً ورحمةً؛ قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (الروم: 21).

فكل وُدٍّ بين العباد هو من وُدِّهِ سبحانه.

فسبحان الله الغفور الودود الذي ينزِّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد، وكل هذه المعاني هي من فيض قول الله تعالى: (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (هود: 90).

اللَّهم اجعلنا من أهل وُدِّكَ في الدنيا والآخرة.

* * *

الطريق إلى نور اللَّه

- ما دلالات نور الله في الكون والإنسان؟
- ما السبيل إلى الفوز بنور الله؟
- ما ثمرات الفوز بنور الله في الدنيا والآخرة؟
- الحرمان من نور الله ضياع وهلاك.

* * *

يقف المؤمن متأمِّلًا الحقيقة النورانية في الآية الكريمة (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) (النور: 35)، وتوضح آيات القرآن الكريم دلالات هذا النور فالله نور السماوات والأرض نوَّرهما بالنور الحسيّ: بالشمس والقمر والنجوم، قال الله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) (الفرقان: 61).

والله نور السماوات والأرض نورَّهما بالنور المعنوي: بالكتب السماوية والرسل والأنبياء وأسباب الهداية التى أنعم الله بها على عباده، قال تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (المائدة: 15).

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما السبيل إلى الفوز بنور الله؟ والقرآن يجيبنا.. فتصف لنا الآيات الكريمة السبيل إلى الفوز بنور الله تعالى، ويأتى الإيمان بالله تعالى في القمة، قال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة: 257).

ثم يأتي العمل الصالح في المرتبة الثانية، قال تعالى: (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (الطلاق: 11).

كما يشير القرآن الكريم إلى أن التقوى ومتابعة الرسول ﷺ من أقوى السبل لتحصيل نور الله عز وجل، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) (الحديد: 28).

والقرآن الكريم نفسه سبيل قويم لنور الله تعالى؛ قال الله تعالى: (الـر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (إبراهيم: 1).

فإذا ما استجاب المؤمن والتزم هدي الله عز وجل واقتدى برسول الله ﷺ أنعم الله عليه من نوره.

ولنور الله ثمرات في الدنيا والآخرة؛ فمن ثمراته في الدنيا أن ينقل الإنسان من حياة الحرمان والخسران إلى حياة النعيم والسكينة إلى الحياة بالمدلول الإيماني، قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ

لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام: 122).

أما عن ثمرات نور الله يوم القيامة، فحسبنا أن نتأمل هذا الموقف الذي يعرضه القرآن ليرغِّب المؤمنين فيما عند الله تعالى من فضل؛ فيسارعوا إلى الخيرات، قال تعالى:

(يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التحريم: 8).

وهذا هو التنوير الحقيقي، والخروج عنه خروج إلى الظلمة والضلال، وسبحان الله القائل: (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) (النور: 40).

لذلك كان من دعائه ﷺ طلب نور الله تعالى؛ فيقول ﷺ: «اللَّهم اجعل في قلبي نورًا وفي بصري نورًا وفي سمعي نورًا وعن يميني نورًا وعن يساري نورًا ومن فوقي نورًا ومن تحتي نورًا، اللَّهم اجعلني نورًا». [البخاري، ك: الدعوات/5841].

* * *

بابك مع اللَّه

- كثرة أبواب الخير.
- هل تعلم أن لكل عبد بابًا مع الله؟
- وهل هناك من يُدْعَى من أكثر من باب من أبواب الجنة؟

* * *

حين تتأتى الرغبة للإنسان لفعل الخيرات، قد يقف بعض الناس عاجزًا حين لا يجد مالًا ينفقه أو علمًا يعلمه، أو شيئًا مما تعارف الناس عليه من وجوه الخير المشهورة، لكن سيدنا رسول الله ﷺ يصحح لنا ويرشدنا إلى كثرة أبواب الخير، وأنه إن عجز الإنسان عن باب من الخير فأمامه عشرات الأبواب والفرص التي يسَّرَها الله لكل راغب في فعل الخيرات. وهذا ما يدلنا عليه حديث سيدنا رسول الله ﷺ؛ حين جاءه بعض الصحابة فقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم. فقال النبي ﷺ: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؛ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة.. حتى قال ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة...» الحديث. [مسلم، ك: الزكاة /1674].

يضاف إلى هذا أن المتأمل للإجابات المتعددة والمتنوعة عن سؤال واحد عُرض على النبي ﷺ بشأن أفضل الأعمال عند الله، يظهر لنا أن الأفضلية ترتبط بحال السائل، وأن الإجابة تنوعت حسب الاستطاعة والميسور للعبد والمناسب له.

فلكل عبد باب مع الله؛ فباب الزوجة مع الله حسن التبعُّل لزوجها وحسن تربية أولادها، وباب العالِم أن يعلِّم الناس مخلصًا لله، وألا تأخذه في الله لومة لائم، وباب التاجر الصدق والأمانة، حتى الخادم له باب مع الله وهو إخلاصه في مال سيده، وأمانته تجعل له مثل أجر سيده مرتين، والقاضي له باب مع الله تعالى وهو بذل كل جهده مخلصًا لربه؛ التماسًا للعدل في الحكم بين الناس.. وهكذا لكل عبد بابه مع الله، وبابك هو ما أقامك الله فيه من عمل صالح فأَخْلص فيه وأَتْقِنْ وأَحْسِنْ عملَك، فإن ذلك يصلك بالله تعالى؛ فإن «من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له»، و«ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرٌ من أن يأكل من عمل يده». [البخاري، ك: البيوع/ 1930].

وإذا وقف العبد على بابه مع الله فأحسن وأخلص لربه كان من أهل باب من أبواب الجنة ينادى عليه من هذا الباب يوم القيامة.. بل هناك من أهل العزم في الخيرات من يُنادى من أكثر من باب من أبواب الجنة؛ فقد ورد في الحديث أن لكل باب من أبواب الجنة أهلًا يُنادى عليهم منه، فقال أبو بكر الصديق: وهل هناك من يُنادى عليه من أكثر من باب؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر». [البخاري، ك:

الصوم/1764].

* * *

الصحبة والعنوان والزاد

- أتدري ما الحقيقة الكبرى؟
- سبق القدر؛ فماذا تصنع الحيل؟!
- كيف يمكن للمرء أن يحدد صحبته وعنوانه في الآخرة؟
- أتحب أن تكون برفقة الأنبياء والشهداء؟
- زاد الرحلة إلى الآخرة، ماذا يكون؟

* * *

طال الأجل أم قصر فلابد من رحلة عن هذه الحياة، وإذا سبق القدر وحان الأجل فماذا تصنع الحيل؟.. تسقط عن الإنسان وتفارقه كل الألقاب، والمظاهر التي يتوارى في ظلّها، ويتبدد الزيف، ويتلاشى الكذب، ويذهب النفاق وتأتي الحقيقة الكبرى وتعترف البشريَّة بقمة عجزها أمام هذه الحقيقة.. فلا الطبيب ينفع ولا السلطان يجدي، قال الله تعالى: (فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَت الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الواقعة: 83 – 87)

ويرحل الإنسان عن دنيا الناس لا يحمل معه إلا ما كسب من خير أو اكتسب من الإثم، وفي الحديث: «إذا مات العبد قال الناس: ما خلَّف– أي ماذا ترك لنا نرثه– وقالت الملائكة: ماذا قدَّم؟».

ولذلك يوصينا القرآن في الدنيا أن نستعد وأن نقدّم لغد: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر: 18)، ويقول المعصوم ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

ويمكن للمؤمن أن يحدد صحبته في الآخرة!! وأن يحدد عنوانه في الآخرة!!

فأما عن الصحبة فنعوذ بالله من صحبة أهل النار، ولننظر إلى أهل الجنة ودرجاتهم لنعمل بأعمالهم ونتأدب بأدبهم كي نكون معهم.. فمع من تحب عليك أن تعمل بعمله مع المتقين.. مع المحسنين.. مع الأبرار بل يمكن لك أن ترقى في تحديد الصحبة.. وتحديد العنوان؛ لتكون في رفقة الأنبياء والشهداء، لقوله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (النساء: 69).

وأما عن زاد الرحلة فالله تعالى دلَّنا عليه، وأمرنا به في قوله تعالى: (وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ

الزَّادِ التَّقْوَى) (البقرة: 197).

ويجمع هذا كله قول الرسول ﷺ: «يا أبا ذر، أحكم السفينة فإن البحر عميق، واستكثر من الزاد فإن السفر طويل، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود، وأخلص العمل فإن الناقد بصير».

الصحبة: رفقة الأنبياء والصديقين والشهداء.

والعنوان: أعلى درجات الجنان.

والزاد: تقوى الله عز وجل.

* * *

عَلامَ التعالي وفيمَ التفاخر؟!

- بم شرف الله أهل الإيمان؟
- هل علو الشأن في الدنيا دليل الفلاح والنجاح؟
- أَيُعْقَل أن يعيب المرء نفسه؟!
- هل تدري ما أشهى مأكولات العصر؟
- ما حقيقة الغيبة؟
- احذر الموائد المُسَمَّمة!!
- خسران الحسنات!!
- فيـم النجـاة؟

* * *

شَرَّف الله أهل الإيمان، فخصَّهم بنداءات إيمانية في القرآن الكريم يأمرهم فيها بفعل الخيرات وترك المنكرات؛ كي يكونوا أهلًا لمنزلة الإيمان التي أكرمهم بها، ومن بين هذه النداءات الإيمانية قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) (الحجرات: 11، 12).

وكي نستشعر فضل الله في هذا النداء، نسأل أنفسنا في رحاب هذه الآية الكريمة: من المنادِي؟ ومن المنادَى عليه؟ ومن الذي بلَّغ النداء؟

وإن كان كل نداء يأخذ قدره وقيمته من قدر المنادي، فالمنادي هنا هو الله رب العالمين.

وأما المبلِّغ للنداء فهو الحبيب الشفيع، الرءوف الرحيم بأمته، إنه رسول الله ﷺ.

وأما المنَادى عليه فكل عبد آمن بالله تعالى ربًّا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

وأما موضوع النداء فهو النهي عن جملة من الأخلاق السيئة التي لا ينبغي أن يتصف بها المؤمن .. أولها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) (الحجرات: 11).

ومن وُدِّ الله لعباده المؤمنين أن يخاطبهم بشكل مقنع، فيقرن الله النهي بسببه وعلته،

كي يكون النهي أوقعَ في العقل والقلب؛ فقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ) (الحجرات: 11).

وتأملْ معي أخي المؤمن: إن كان الناس كلهم لآدم وآدم من تراب فعلام التعالي وفيم التفاخر؟!

قد يتعالى بعض الناس بأموالهم أو بمناصبهم، أو بعلمهم، أو بقوتهم، أو بغير ذلك من نعم هي من فضل الله تعالى.. قال تعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (النحل: 53).

والنعم تستوجب الشكر للمنعم لا أن نتعالى بها على الناس، وتبيِّن الآية أن المسخور منه والمُستَهزأ به ربما كان قدره عند الله أغلى وأكرم.

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي– رضي الله عنه– قال: مرَّ رجل على النبي ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رَجُل من أشراف الناس هذا والله حَريٌّ إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يُشَفَّعَ. فسكت رسول الله ﷺ ثم مرَّ رجلٌ آخر، فقال له رسولُ الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حَريٌّ إن خطب ألا ينكح، وإن شفع لا يشفع، وإن قال لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا». [البخاري، ك: النكاح/4701].

وروى مسلم عن عياض– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبغي أحد على أحد». [مسلم، ك: الجنة/ 5190].

وربما كان التباهي بالزينة والجمال أكثر شيوعًا بين كثير من النساء فعقَّب الله بالنهي الخاص بهن: (وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ) (الحجرات: 11).

ثم تعرض الآية لنهي جديد: (وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) (الحجرات: 11). أي لا ينبغي أن يعيب بعضكم بعضًا؛ لأن المؤمنين كلَّهم كنفس واحدة؛ فمتى عاب المؤمن أخاه فقد عاب نفسه.

ثم يقول الله تعالى: (وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ) (الحجرات: 11)؛ فلا ينبغي لمن أكرمهم الله بالإيمان أن يدعو بعضهم بعضًا بألَقاب مكروهة سيئة، والنبي ﷺ كان يدعو أصحابه بأحب الألقاب وأحسنها، مثل لقب الصديق لأبي بكر –رضي الله عنه– ولقب الفاروق لعمر بن الخطاب– رضى الله عنه.

فنداء أخيك بما تحب فيه تأليف لقلبه ورعاية للمودَّة والمحبة التي يزكيها الإسلام بين أهل الإيمان.

ثم تدعو الآية من اقترف شيئًا من هذه النواهي أن يتوب وأن يكف عن ظلم نفسه.. قال تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الحجرات: 11).

ثم يجدد الله النداء لتأكيد النهي ولفت الانتباه إلى خطورة هذه المعاصي، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) (الحجرات: 12).

والاجتناب غير الفعل، فالاجتناب ترك الدواعي والأسباب المؤدية إلى الشيء، والظن هو التهمة التي لا دليل عليها، ولا برهان لها، ولقد نهى النبي ﷺ عن الظن؛ جاء في الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن؛ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث» ثم تنهانا الآية عن التجسس وهو التماس عيوب الغير والبحثُ عنها، ونهانا عنه أيضًا رسول الله ﷺ؛ ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا». [البخاري، ك: النكاح/4747].

ثم يأتي في ختام المنهيات ما جاء في هذه الآية حيث النهي عن الغيبة، وشبه- سبحانه وتعالى- المغتاب تشبيهًا ينفّر المؤمنين منه وأورده بصورة استفهامية تثير العقل؛ ليلفت انتباه الغافل، (وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) (الحجرات: 12).

لحوم البشر.. أشهى مأكولات العصر:

هل خطر ببالك أن يكون أحد الأصحاب وجبة شهية لا يشبع منها الرفاق إذا اجتمعوا؟ ولا يملون تكرار تناولها كلما جلسوا.

ماذا يكون شعورك نحو الذابح والذبيح..؟

هل يمكن أن تمتد يدك لتأكل لحم أخيك وأنت على يقين أن لحمك هو طعام الوجبة القادمة..؟

أظن أن البشر على اختلاف أجناسهم ومللهم ينظرون إلى فعلة كهذه نظرة التأذي والاشمئزاز.

والآن هيئ نفسك لتتلقى هذا التقرير الذي يعبر عن واقع موجود في حياتنا.

«نحن نمارس هذه الفعلة في اليوم مرات ومرات، بل وبشهية كبيرة»!!

والحالة بهذه الصورة حالة مَرَضِيَّة تستوجب العرض على أشعة الهداية القرآنية؛ لتشخِّص المرض بدقة ووضوح، ثم نلتمس من القرآن والسُّنَّة سبل الشفاء.

قال الله تعالى: (وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) (الحجرات: 12).

وأخرج أبو داود عن أنس- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «مررت ليلة أُسْرِيَ بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافرهم، فقلت: يا جبريل، ومن هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم». [أبو داود، ك: الأدب/4235].

يحدد النبي ﷺ بدقة وضوح معنى الغيبة وذلك فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه». [مسلم، ك: البر/4690].

ولا تقتصر الغيبة على اللسان، فكل ما يظهر معنى الغيبة ويقوم مقام لفظها ويؤدي معناه من فعل أو إشارة أو كتابة فهو غيبة، ويشهد لذلك ما رواه ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة» فقال ﷺ: «قد اغتبتِها». [المسند/ 23898].

وكما أن الحديث بالغيبة حرام فسماعها حرام أيضًا؛ إذ فيه لون من مشاركة المتحدث في الإثم، وانصراف المؤمن عن المغتاب فيه لون من النهي العملي عن الغيبة، وعدم إتاحة الفرصة لإتمام عملية الغيبة، بل له أن يعظه وينهاه بالقول إن كان ذلك لائقًا به، ويتأتى منه لقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم من حديث تميم بن أوس الداري: «الدين النصيحة». [مسلم، ك: الإيمان/82].

واجتمعت كلمة أهل العلم على أن كفارة الغيبة تكون بالتوبة أولًا، ثم الاستحلال إن أمكن؛ لقول النبي ﷺ فيما اتفق عليه من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-: «من كان لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار أو درهم، إنما يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه». [البخاري، ك: المظالم/ 2269].

فإن سبَّبَ الاستحلال ضررًا أكبر، أو لم يكن ممكنًا لموت من اغتابه أو عدم معرفة مكانه.. إلخ، فعليه أن يكثر من الثناء والدعاء لمن اغتابه لقول النبي ﷺ فيما أخرجه ابن أبي الدنيا: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له».

أخي المسلم.. فكر جيدًا.

- لِمَ تُحَكِّم من تغتابه في حسناتك (الثروة النافعة في الدار الآخرة)؟!!
- بل وتتحمل من سيئاته إن أنهى على حسناتك.
- كيف تنفق نعمة الوقت في عمل غير صالح؟!

أخي المسلم.. اعتذر ولا تجلس على هذه الموائد.. إنها موائد مسممة.. مدمرة، وأتح لنفسك فرصة القرب من أنوار هداية القرآن وبركة السنة.

اللَّهم طهِّر ألسنتنا وجوارحنا من كل ما لا تحب، وجمِّل ألسنتنا وجوارحنا بكل ما تحب.

* * *

نفسك التي بين جنبيك

– ما النفس؟ وما أوصافها؟ وكيف تتمايز إلى خيِّرة أو شريرة؟
– كيف ترقى النفس لتكون مطمئنة؟
– ما السبيل إلى تربية النفس؟
– ما حديث النفس المعفوُّ عنه؟

* * *

الإنسان شغوف دائمًا بالتعرف على ذاته، وعلى نفسه.. ما النفس؟ وما أوصافها؟ وكيف تتمايز النفوس إلى خيِّرة أو شريرة؟ وقامت من أجل ذلك علوم لدراسة النفس البشرية دراسة منهجية، وواجهت هذه الدراسات صعوبات لعل من أهمها صعوبة التحكم في عينة الدراسة أو فصل الجزئية المراد دراستها؛ لذلك كانت النتائج بعيدة عن اليقين، وما زالت رحلة المعرفة تستكشف كل يوم جديدًا، لكن خالق النفس العليم بأمرها يقدم لنا زادًا من المعرفة الحقَّة عن النفس الإنسانية.

النفس وصلتها بالروح:

الذي اتفق عليه جمهور أهل السنَّة والجماعة أن النفسَ هي الروح؛ لقول الله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (الزمر: 42)، وحديث النبي ﷺ في الدعاء عند النوم: «فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». [البخاري، ك: الدعوات/5845].

والنفس أو الروح هي ذلك السر العظيم الممنوح بقوة الله تعالى لهذا الجسد الترابي، ليبعث فيه الحياة، فتنظر العين وتتحرك اليدان والرجلان ويدق القلب ويفكر العقل. والنفس تطلق في القرآن على الذات بجملتها، كقوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) (النساء: 29)، (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا) (النحل: 111)، (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) (المدثر: 38).

فحديث القرآن عن النفس أو الروح يصـرف الأمة عن التفكـر أو البحث في ذات النفس أو الروح؛ لأنه خارج عن طاقتهم وقدرتهم وعلمهم؛ إنه مما اختص الله به نفسه، قال تعالى: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) (الكهف: 51)، وقال عز وجل: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) (الإسراء: 85).

لكن القرآن يركز على ما يزكي هذه النفس ويرغِّب فيه، ويرغب عما يدنس هذه النفس، ويرهب منه ويبغِّضُ فيه، ألستم تقرءون: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَاً) (الشمس: 7 – 10). والإلهام هنا

بمعنى: الإفهام والإعقال، مثل قوله تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: 10).

ويشر الله من خالفوا هوى النفس بجنته فقال: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات: 40، 41).

مراتب النفس في القرآن:

قسم القرآن الكريم النفس إلى أنواع ثلاثة:

1 – الأَمَّارة: وهي أدنى أوصاف النفس، حين تألف الشر وتأمر صاحبها به، وتزينه له، وفيها يقول ربنا: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) (يوسف: 53).

2 – اللوَّامة: وهي درجة متوسطة للنفس، فهي تبغض الشر وتلوم صاحبها على فعله، ولكنها لا تسلم من الوقوع في الآثام، لكن اللوم يعذب صاحب هذه النفس بعد معصيته، وهي نفس سمت وارتفعت عن أوصاف النفس الأمارة بالسوء، وهي التي أقسم الله بها في قوله: (وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة: 2).

3 – المطمئنة: وهي أسمى مر اتب النفس، وهي التي تطمئن بالخير وتأمر صاحبها به، وهي التي سمت وارتفعت عن أوصاف النفس اللوامة، وحدثنا عنها القرآن في قوله تعالى:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر: 27– 30).

وهذا التقسيم لا يخالف ما عليه تصنيف أحبابنا أهل التصوف، إذ لهم تفريعات من هذه الأقسام.

ولا يحسب أحد أن النفس تنتقل من الأمَّارة إلى اللوَّامة، أو من اللوَّامة إلى المطمئنة دفعة واحدة، بل النفس تؤخذ بما غلب عليها من الصفات. والنفس واحدةٌ، فإن تُركَت للشيطان كانت أَمَّارة، وإن اقتربت من منهج الرحمن كانت لوَّامة، وإن تشبَّعَتْ بمنهج الله فأحبت الرحمن وخاصمت الشيطان صارت مطمئنة.

منهج قرآني لتهذيب النفس وتربيتها:

أهل الإيمان مخاطبون من الله تعالى بعدم ترك النفس تسرح وتمرح وتلهو وتلعب في ميدان الجهلة والعصاة؛ لأن النفس كما قال البوصيري:

واستمع معي لهذا النداء الإيماني في القرآن الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (المائدة: 105).

ما أسعدنا ونحن ننعم ونفيد من تفسير رسول الله ﷺ لهذه الآية؛ فهو أعلم الناس بالقرآن، كيف لا وعليه قد أنزل؟ كيف لا وسنته بيانٌ للقرآن؟ فعن أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني، قلتُ: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في قول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) (المائدة: 105). قال: أما

والله لقد سألتَ عنها خبيرًا، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوى مُتبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله، قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلًا منَّا أو منهم؟ قال: بل أجرُ خمسين منكم». [الترمذي: ك: تفسير القرآن/ 2984].

هذا لمن أقام كتاب الله في نفسه وربَّى نفسه على موائد رسول الله ﷺ، في زمان فشت فيه المعصية وساء العلم، وازداد الفسوق، وعمَّ الترف، وكثرت الشهوات. سيكون له أجر مضاعف مثل أجر خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ.

فإن ترك الإنسان نفسه فماذا ينتظر ورسولُ الله ﷺ يقول في شأنها: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»؟ [إتحاف المتقين: 9/33].

ولا شك أن كل واحدٍ منَّا يجد من نفسه أمورًا لا ترضي الله تعالى، فكيف السبيل وكيف الخلاص؟

الخلاص في أمور أربعة: المشارطة، المراقبة، المحاسبة، المعاتبة والمعاقبة.

1- المشارطة:

المؤمن مكلف بطاعة الله تعالى، عليه أن يتوب ويشارط نفسه على التزام طاعة الله وإقامة كتاب الله في أقواله وأفعاله، وأن مرجع أسوته وقدوته رسول الله ﷺ.

2- المراقبة:

على المؤمن أن يتابع نفسه ويلاحظها ويراقبها في سرها وعلنها، يقول البوصيري:

وليعلم أن الرقابة الإلهية تسجل كل مخالفة، وحسبنا ردعًا قول ربنا الباري سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء: 1)، (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) (الأعلى: 7)، (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) (العلق: 14).

3- المحاسبة:

على الإنسان أن يسجل على نفسه ما اقترف من إثم وما فعل من معصية، وأن يحاسب نفسه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر: 18)، وسيدنا عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- يقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم».

4- المعاتبة والمعاقبة:

كان الفاروق عمر- رضي الله عنه- يعاقب نفسه فيضربها ويوبخها.

ولعل هذه المعاني غريبة في عصر الإشباع المادي الذي يسعى فيه كل إنسان متفننًا مجتهدًا كيف يمتّع نفسه، لا كيف يهذّب نفسه.

سيدنا عمر حدثته نفسه يومًا بسوءٍ، وحديث النفس معفوٌّ عنه لا يحاسبنا الله عليه،

لكنَّ عمر لم يسمح لنفسه بذلك، وذهب إلى المسجد والناس جموعٌ بالمسجد، فصعد المنبر ونادى بأعلى صوته: «أيها الناس، إن نفسي حدثتني بسوء، فأقسمت بالله عز وجل أن أزجرها أمامكم كي لا تعود إلى مثل ذلك أبدًا».

فعليك أيها المؤمن أن تكون متهمًا لنفسك، مراقبًا لها، محاسبًا، معاتبًا، فاليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، يقول سيدنا النبي ﷺ: «الكَيّسُ مَنْ دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني». [الترمذي، ك: صفة القيامة/ 2383].

حديث النفس:

روى البخاري عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: « إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ». [البخاري، ك: الطلاق/4864].

فما هو حديث النفس الذي عفي عنه؟

هو مثل حديث عثمان بن مظعون الذي رواه مسلم والترمذي والنسائي: قال عثمان بن مظعون: يا رسول الله، نفسي تحدثني أن أطلق خولة. فقال: «مهلًا؛ فإن من سنتي النكاح». قال: نفسي تحدثني أن أَجُبَّ نفسي. قال: «مهلًا؛ إن خصاء أمتي دءوب الصيام». قال: نفسي تحدثني أن أترهب بنفسي. قال: «مهلًا، رهبانية أمتي الحج والجهاد». قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال: «مهلًا، فإنى أحبه ولو أصبته لأكلته، ولوسألته ربِّي لأَطْعَمَنِي».

فمثل هذا حديث نفس لا تنعقد النية على فعله ولا يقوم العزم على تنفيذه، بل هي خطرات تمرُّ بالنفس، فهذا معفوٌّ عنه.

أما اعتقاد القلب، فهو انعقاد وقيام العزم على فعل شيء، فهذا محاسبٌ عليه العبدُ، فإن رجعَ عن نيته السيئة فقد تاب إلى الله تعالى، وإن أنفذ ما حدثته به نفسه وقعَ في المعصية، ولهذا قال البوصيري:

فاختر لنفسك أيها المؤمن ما تحبُّ أن تكونه، (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (البقرة: 148).

* * *

رسالة إبراهيمية إلى الأمة المحمدية

- ماذا يا تُرى كانت رسالة إبراهيم عليه السلام إلى أمة الحبيب ﷺ؟
- بم فضل الله محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء والرسل؟
- التسبيح وغرس الجنة.

* * *

عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد؛ أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب].

قيعان: جمع قاع، وهو المكان الواسع المستوي من الأرض.

الحديث يشير في بدايته إلى الصلة الودودة الحميمة بين الأمة المحمدية وأنبياء الله تعالى، وذلك للمكانة الكريمة التي فضل الله بها هذه الأمة على سائر الأمم، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران: 110).

ورغم أن الأمة المحمدية هي آخر الأمم فإن خبرها معلوم لدى الأنبياء، وذلك من خلال التبشير بهذه الأمة وبنبيها سيدنا محمد ﷺ في الكتب السابقة.

وكان ﷺ في المنزلة العالية التي فضَّله الله بها حين صلى بالأنبياء إمامًا ليلة أُسري به، وأيضًا لما جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين، والمتفرد بالشفاعة بين أنبياء يوم الدين، رفعة للأمة المحمدية.

قال الإمام البوصيري:

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ ولَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».[البخاري، ك: التيمم/ 323].

وهذه الرسالة الإبراهيمية تخبر عن حب وود سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمة الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ، وليس نبي الله إبراهيم وحده في هذا الود للأمة المحمدية؛ فسيدنا موسى- عليه السلام- لما أطلعه الله على الفضل الذي أسبغه على الأمة المحمدية تمنى أن يكون واحدًا من هذه الأمة، وقال النبي: «وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلا أَنْ يَتَّبِعَنِي». [مسند أحمد/ 14623].

محتوى الرسالة:

ومحتوى الرسالة الإبراهيمية قسمان:

الأول: التحية الإيمانية لهذه الأمة. «أقرئ أمتك مني السلام» وينبغي على كل مؤمن إذا وصلته هذه التحية أن يردها، فيقول: «وعليك يا نبي الله يا خليل الله يا سيدنا إبراهيم السلام فعليك السلام ورحمة الله وبركاته وجزاك الله عنا خيرًا».

الثاني: بشرى ونصيحة لهذه الأمة المحمدية: «وأخبرهم أن الجنة.. إلخ».

أي أن الجنة متهيئة لاستقبالكم فاجتهدوا في طلبها والسعي إليها، ويخبرنا أن المكانة العالية في الجنة تتأتى للذاكرين والذين بحوزتهم غراس الجنة.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن جابر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ». [الترمذي، ك: الدعوات/ 3386. وقال: حديث حسن غريب].

* * *

مَن المفلح؟!

- كيف تصل إلى الفلاح؟
- الصلاة بوابة طريق الفلاح.
- قلب يخشع قبل الجوارح.
- كيف يصل الإنسان إلى الخشوع في الصلاة؟

* * *

روى الترمذي في سننه عن عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ سُمِعَ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَمَكَثْنَا سَاعَةً فَسُرِّيَ عَنْهُ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا» ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَات مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ثُمَّ قَرَأَ (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) حَتَّى ختم عَشْرَ آيَاتٍ. [الترمذي، كَ: التفسير/3097].

وهذه بشرى من سيدنا رسول الله ﷺ لمن أقام هذه الآيات من أمته، وإقامتها مداومة العمل بهديها. ولا يكفي حفظها أو تلاوتها أو العلم بها فقط، فكل ذلك لا يرقى بصاحبه للفوز ببشرى رسول الله ﷺ.

وقد افتتح الله تعالى هذه الآيات بتأكيد وتحقيق الفلاح وجعله وصفًا خاصًّا بأهل الإيمان؛ فقال سبحانه: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) (المؤمنون: 1) والإيمان ليس مجرد كلمة تنطق باللسان.

قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتمني، إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل».

فلابد من العمل لمن أراد بلوغ الفلاح؛ إذ إن الفلاح ما ذكر في القرآن الكريم إلا مقرونًا بفعل طاعة، قال تعالى: (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الحج: 77).

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور: 31).

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الجمعة: 10).

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة: 35).

وفي المقابل ينفي القرآن الكريم الفلاح عن أهل المعصية، فإذا ذكرت مخالفة؛ انتفى الفلاح وحلَّ محله وصف آخر. قال تعالى: (إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (القصص: 37).

(إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) (يونس: 17).

من هنا نعلم أن الإيمان ضروري في سلوك سبيل الفلاح؛ إذ هو السر في تحول الإنسان من الظلمات إلى النور، ومن المعصية إلى الطاعة، فإذا تجرد العبد عن وصف «المؤمن» إلى «الإنسان» فقط؛ انحدر إلى قاع الهاوية غير واجد سبيل النجاة. قال تعالى: (إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) (العصر: 2)، (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) (العاديات: 6)، (إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم: 34).

ثم تفصِّل الآيات بعد ذلك ما أجملته؛ حيث تحدد تكاليف الإيمان من الطاعات التي تصل بالإنسان إلى الفلاح: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون: 2).

وإذا أمعنت النظر وجدت أن الله تعالى قد افتتح الآيات واختتمها بصفتين تخصان المصلين؛ فقال تعالى: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون: 2)، وقال في ختامها: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (المؤمنون: 9).

والمحافظة على الصلاة هى أداؤها في أوقاتها التى حددها الله تعالى، وبينها رسول الله ﷺ.

فصلاة الظهر مثلًا وقتها من أذان الظهر إلى قبيل أذان العصر، وبيَّنت السنة المطهرة تفاضل أجزاء ذلك الوقت؛ فأوله رضوان، وأوسطه رحمة، وآخره عفو، كما أخبر النبي ﷺ. [الترمذي، ك: الصلاة/157].

وأما الخشوع فله قسمان:

(1) خشوع القلب.

(2) خشوع الجوارح.

أما خشوع القلب فهو قمة حضوره مخلصًا لله تعالى لا ينشغل بشيء سواه، ومنه الاطمئنان، وقد عدَّه بعض الفقهاء كالمالكية ركنًا لا تصح الصلاة بدونه.

قال رسول الله ﷺ للرجل الذي لم يطمئن في صلاته: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». [البخاري، ك: الأذان/ 715].

وأما خشوع الجوارح فهو سكونها أثناء الصلاة، فلا ينصرف النظر إلى غير موضع السجود، ولا تتحرك اليدان أو الرجلان عن مواضعهما. فلا يجوز لمصلٍّ أن يتحرك حركات زائدة في الصلاة بغير عذر.

وخشوع الجوارح لا يتأتى إلا من خشوع القلب، كما قال النبي ﷺ: «أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ». [البخاري، ك: الإيمان/ 50].

ووجد الرسول ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في صلاته فقال: «لو خشع قلب هذا؛ لخشعت جوارحه».

وهنا سؤالٌ يطرح نفسه: كيف يصل الإنسان إلى الخشوع في الصلاة؟ وفيما يلي الفائدة:

لقد سئل حاتم الأصم: كيف تصلي؟ قال: إذا أردت الصلاة قمت إلى الوضوء فأسبغته، ثم أتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأجلس فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى الصلاة فأجعل الكعبة بين عينيَّ، والصراط تحت قدميَّ، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت من ورائي، والله ناظرٌ إليَّ ومطّلعٌ عليَّ، ثم أدخل الصلاة فأكبر تكبيرًا بتحقيق، وأقرأ قراءة بتدبُّرٍ وترتيل، ثم أركع ركوعًا بتواضع، وأسجد سجودًا بخشوع، ثم أتبعها الإخلاص، ثم أخرجُ من صلاتي لا أدري أقبلها الله مني أم لا.

ذلك الذى ذكره هو عين الخشوع والخضوع بالقلب والجوارح، وحسبك من كل ما تقدم قول رسول الله ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُم الصَّلاةُ، وَلا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلا مُؤْمِنٌ». [ابن ماجه، ك: الطهارة وسننها/ 273].

* * *

بين وحي يتلى ووحي ينفذ

- ما علاقة السنة بالقرآن الكريم؟
- هل لنا أن نقدم رأينا على أمر الله أو على أمر رسول الله ﷺ؟!
- هل من الممكن أن يصلح العقل بديلًا عن السنة؟!
- هل العادات والتقاليد تصلح بديلًا عن السنة؟!
- القرآن يأمرنا بالسنة.
- هل تكفَّل الله تعالى بحفظ السنة مثل القرآن؟

* * *

الذين يشككون في السُّنَّة وينادون بعزل السُّنَّة عن التشريع والاكتفاء بالقرآن الكريم، كيف يفهمون هذه الآيات وهى تضع السُّنَّة في ارتباط وثيق وصلة أكيدة بالقرآن الكريم...؟

أولًا: قول اللَّـه تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل: 44). فالسنة مبيِّنة ومفصِّلة وموضِّحة للآيات؛ فالبيان بنص الآية مرتبط بالتنزيل ومقترن به، وإلا فأخبرني- هداك الله- عن أمور أجملَها القرآن وجاء بيانها في السنة، كالصلاة والحج والزكاة والصيام؛ فبيان كل هذه العبادات وتفصيل كيفيتها لا يوجد إلا في السنة، وتمَّ بوحي من الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ.

ثانيًا: قول الله تعالى:

(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء: 65)، فانظر- هداك الله - كيف ربط القرآن الكريم بين الإيمان وبين أمرين بشأن سيدنا رسول الله ﷺ :

الأول: الاحتكام لهديه ﷺ. الثاني: الرضا به.

ثالثًا: قول الله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب: 21). فانظر - هداك الله- كيف وجَّهنا الله إلى حضرته ﷺ أسوة وقدوة لا نتحول عنها لغيرها أبدًا.

رابعًا: قول الله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: 7). فانظر- هداك الله-

كيف أمرنا الله إجمالًا أن نأتمر بأمره ﷺ.

خامسًا: قول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الحجرات: 1). فانظر- هداك الله- إلى هذا النهي الصريح عن أن نقدم رأيًا لنا على هدي الله أو على سنة رسول الله ﷺ.

ما البديل عندكم عن السنة؟

انظر- هداك الله- إلى سيدنا رسول الله ﷺ وآيات القرآن التي تزكي كل جانب من جوانب حياته:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: 4)، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: 107)، (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) (النساء: 113)، (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) (النجم: 3، 4)، (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) (الشرح: 1)، إلى آخر الآيات الكثيرة تحت هذا المعنى؛ فأي الناس قاطبة كرسول الله ﷺ كي يضع الواحد منهم رأيه أو اجتهاده مكان السنة؟!! أيكم ينزل عليه الوحي ليثبت ما هو صواب عند الله، ويبطل ما غير ذلك؟! ثم إن جميع أحوال رسول الله ﷺ كانت مرتبطة بالقرآن؛ فالنموذج التطبيقي للقرآن هو سنة النبيﷺ، وبالتالي كلاهما وحي يُنفَّذ.

هل العقل يصلح بديلًا عن السنة؟!

إن عقل الإنسان يخطئ ويصيب، والدين من الله تعالى .. وليس الدين فكرًا بشريًا .. ولو كان الدين بالعقل لأصبح الناس كل يوم في دين جديد .. والواقع يشهد لذلك؛ ففي أمريكا في ولاية كاليفورنيا بالتحديد في أعوام مضت قامت مظاهرة تطالب بإباحة الإجهاض لمن تريد التخلص من الحمل من النساء، وبعدها بأسبوعين قامت مظاهرة أخرى تطالب بتحريم الإجهاض .. وهذا شأن البشر وتفكيرهم وعقولهم .. ولا يزالون مختلفين!!

هل العادات والتقاليد تصلح بديلًا عن السنة؟!

إن من يتأمل وضع العادات والتقاليد يجدها متبدّلة ومتغيّرة لا تستقر على حال، بل وربما استحكمت عادات سيئة في مجتمعات كثيرة؛ مثال ذلك في الغرب لعهد قريب- وما زالت آثار ذلك تضرب في حياتهم المعاصرة-: التفرقة بين الأبيض والأسود، واتخاذ الخلان والأصدقاء للمعاشرة بين الرجل والمرأة بدون زواج، ونسبة الولد لأمه حين لا يعلم له أب.

وعندنا عادة الأخذ بالثأر في الصعيد .. وهذه أمثلة قليلة من كثير من العادات والتقاليد السيئة التي تنتشر في المجتمع العالمي المعاصر .. فهل نستبدل الكفر بالإيمان؟!

أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟!

انظر– هداك الله– إلى أدلتهم:

– يستشهدون على التشكيك في السنة بحديث رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عني»، والحديث وارد لا شك فيه، لكن هنا فقه غاب عنهم؛ وهو أن هذا النهي كان في بداية نزول القرآن الكريم، وقد نهى رسول الله ﷺ الصحابة عن كتابة السنة في بدء الأمر؛ كي لا تختلط السنة بالقرآن، فلما تميَّز الأمر واتضح أمرَ رسول الله ﷺ بكتابة السنة فقال: «اكتب عني؛ فإنني لا أقول إلا حقًّا».

ثم أليس هذا تناقضًا أن من ألغى السنة وشكك فيها يستشهد بالسنة؟! أم هو الهوى قد سيطر على عقولهم؟!

القرآن يحذرنا من المشككين في السنة:

احذر أيها المؤمن أن تسلك مسلك هؤلاء القوم وتصيبك الجرأة على رسول الله ﷺ وسنته المطهرة، واحذر أن تكون مع من استهانوا بحضرته ﷺ واستخفوا بسنته ﷺ فنزل فيهم قول الله تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً) (الفرقان: 27 – 29).

والقرآن الكريم يوجهنا أَلَّا نسألهم وألا نأخذ منهم وألا نتلقى عنهم؛ لأنهم ليسوا بأهل ذكر ولا أهل علم في دين الله، وإنما هي أهواء شخصية وخيال جامح استبدَّ بهم وتأويل مرفوض ترفضه قواعد اللغة ومعايير الاجتهاد. وحسبنا أن نكون في رحاب هدي قول الله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (النحل: 43).

السنة محفوظة بأمر الله تعالى:

من المُسَلَّم به أن الله قد تعهد بحفظ كتابه وبالتبعية لكل ما يتصل به، ويشهد الواقع على مر التاريخ أن كل ما يتعلق بهذا الكتاب محفوظ بحفظه، فاللغة العربية مثلًا ظلت حية لم تندثر مع لغات كثيرة ماتت واندثرت بموت أهلها، أو توارت عن الاستعمال بضعف أهلها إلا اللغة العربية، وكان ذلك بفضل القرآن الكريم.

أيضًا بشأن السنة حيث إنها مبيِّنة ومفصِّلة لكتاب الله تعالى، وهي جزء من التشريع الذي تم بوحي من الله تعالى، فالقرآن وحي يُتلى والسُّنَّةُ وحي يُنفَّذ ويطبق، نعم وجهان لشيء واحد هو الإسلام هو الدين الخاتم ولا دين بعده، فإن الله يهيئ للسنة في كل زمان ومكان على مدى التاريخ أنبغ العقول لحفظها بمعايير علمية ومنهجية، واسألوا أهل التاريخ والرواية: هلَّا توفَّر لأي رواية أو أي حدث ما توفَّر للسنة، أم أن هؤلاء لم يطلعوا على علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية؟! ألم يطلعوا على قواعد الجرح والتعديل التي كانت تراعي إجمالًا قاعدتين في غاية الأهمية: الكفاءة في الحفظ، والأمانة في النقل وهكذا.. فكما أن القرآن محفوظ بأمر الله تعالى، فستظل السنة محفوظة بأمر الله تعالى وكذلك كل ما يتصل بالقرآن الكريم.

وأخيرًا.. ندعو الله تعالى لهم بالهداية كي يعودوا إلى صفوف الصالحين مقتدين بسنة

رسول الله ﷺ.

* * *

الرفقة يا رسول اللّه

- حقيقة القرب من رسول الله ﷺ.
- هل تريد أن تكون برفقة رسول الله ﷺ؟
- أتعلم أن صلاتك على رسول الله ﷺ تعرض عليه دومًا؟
- ألا تحب أن ترسل رسالة إلى حبيبك ﷺ؟

* * *

في البداية، أستسمح وأستأذن سيدنا رسول الله ﷺ أن نعيش معه خلال هذه السطور.

أستسمح؛ لأن البيان قاصر، ولأن الباع قصير، وما كان لمثلي أن يتحدث عن صاحب المقام الرفيع سيدنا ومولانا محمد ﷺ، لولا الحب والود وواجب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم أستأذنكم في أن يكون الحديث حول معنى اللحظة التي عشتها في جوار الحرم النبوي، وكيف يمكن أن تمتد حتى بعد انتقال الجسد من مكان إلى مكان آخر، فحين يكون العبد قريبًا من ربه، قريبًا من رسول الله ﷺ تتقرب إليه الأشياء.. وتنصلح له؛ حتى النفس الأمارة بالسوء إذا ما علمت أن ذنوبنا تعرض على سيدنا رسول الله ﷺ كل أسبوع، فما وجد من ذنب لأحد من أمته إلا استغفر الله تعالى له كل أسبوع، وأنه تعرض عليه أيضًا الصالحات كل أسبوع، فما وجد من ذلك لأحد من أمته إلا استبشر وحمِدَ الله تعالى. وهكذا أعمالنا حسنُها وسيئها تُعرض على سيدنا رسول الله ﷺ؛ إذا ما استيقن الإنسان من هذا، فإنه يفكر جادًّا في أن يكون العرض الأسبوعي الذي يصل إلى رسول الله ﷺ مما يُشرّف من الأعمال الصالحة، وفي هذا ما يجعل كل فرد في أمته يفكر متأملًا في حرص هذا النبي الرءوف الرحيم على أمته في حياته وبعد مماته، فهو دائمًا يطلب الصفح والعفو لأمته من ربه تعالى. فجزاه الله خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمته، وزاد الله في قلوبنا الحبَّ الودود له، حتى نكون أهلًا لهذه العلاقة الحميمة، بين سيدنا رسول الله ﷺ وأمته، قال الله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة: 128).

في هذا ما يجعل كل فرد في أمته- كتب الله له أن يكون خادمًا لدعوته- يعلم يقينًا أن شفقة الداعي على أتباعه وحرصه عليهم، والمحاولة الجادة الدائمة الرحيمة لإسعادهم برضا الله تعالى، وصرف خطر الذنوب والأوزار عنهم؛ طريق نجاح للداعي ودعوته.

ولما كانت أعمالنا تعرض عليه ﷺ، فمن بين الصالحات التى لها منزلة عالية: الصلاة والسلام عليه من أفراد أمته، فقد جعل الله تعالى مَلَكًا خاصًّا لمهمة تبليغ النبي ﷺ صلاةَ أمته وسلامَها عليه.

فاختر أيها المؤمن، رسالتك إلى رسول الله ﷺ، ولا شك أنها ستكون الصلاة والسلام عليه؛ لتنال شرف الاستجابة لأمر من أوامر الله تعالى بدأ اللهُ فيه بنفسه، وثنَّى بملائكة قُدْسِه، وثلَّث بالمؤمنين من إنسه وجنّه، فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (الأحزاب: 56).

ولعل ما سبق من تأملات في رحاب الزيارة الكريمة لسيدنا رسول الله ﷺ- نسأل الله تعالى أن ينفعنا بها- يقف بنا عند معنى من أهم المعاني التي شغل بها المسلمون: معنى القرب منه والجوار له، والرفقة في الدنيا والآخرة، حتى إن الحب يدفع الكثيرين إلى الإقامة بالمدينة متى وجدوا لذلك سبيلًا، فما دلالة هذا القرب؟

هذا المعنى قد سبقنا إليه الأخيار الفضلاء صحابة النبي ﷺ، بل كان مطلبًا صريحًا أعلنوه، وفاضت به عبارات الوجد والحب التي يصحبها الدمع الحار والإحساس العميق بفضل القرب من هذا النبيِّ العظيم المنوط به الرحمة، والشفاعة، والرأفة، والخيرُ الوافر في الدنيا والآخرة.

وسوف يزداد حجم الاستفادة حين يمتد التأمل المتأنى في رحاب نور الإيمان، كيف أن الصحابة- رضوان الله عليهم- تجاوزوا تمامًا حدود الدنيا إلى الآخرة، وتجاوزوا حدود القرب الجسدي إلى قرب الطاعة، والتأسي به، والاقتداء بأحواله ﷺ.

وكانت أسئلتهم في ذلك محمَّلة بهذه المعاني وبأكثر منها، ففي السؤال الباكي لثوبان حين تَذَكَّر أمر الدنيا والآخرة وعلم أنه في الآخرة لا يرقى عمله لرفقة النبي العظيم، وأن هذا يحرمه من فضل الرفقة في الآخرة، عرض أمره على النبي ﷺ وهو يتجاوز حدود هذه الدنيا الفانية العاجلة الغرور، فأنزل الله تعالى قرآنًا يهدي به كل راغب في رفقة الحبيب النبي ﷺ، ووصف السبيل إلى ذلك بصورة محددة وواضحة: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (النساء: 69).

وفي السؤال الإيماني الواعي بحقائق الفاهم بنور الله تعالى، حين سأل ربيعة بن كعب الأسلمي (أبو فراس)- من أهل الصُّفَّة، وكان من أحلاس المسجد كوصف رسول الله ﷺ له- حين قدَّم هذا الصحابي ماءَ الوضوء لرسول الله ﷺ، وأحب النبي أن يكافئه ويكرمه، فقال له: «سلني». فقال: أسألك يا رسول الله مرافقتك في الجنة. فقال له النبي ﷺ: «أو غير ذلك؟» فقال: هو ذاك. فقال له النبي ﷺ- يصف الطريق والسبيل الميسر لهذه الرفقة والتحصُّل عليها والفوز بها-: «أَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود». [مسلم، ك: الصلاة/ 754].

السجود بمعناه الممتد في كل الأفعال والأقوال.. السجود بدلالته التى تجعل الخشوع ملابسًا لكل أفعال المؤمن.. والسجود كرمز لقمة الطاعة والخضوع لله تعالى.

وهكذا يصل العبد إلى هذه القمة بعون الله تعالى، يصل إلى نقطة القرب ومعنى القرب.

وكم ركَّز الحبيبُ النبيُّ ﷺ على هذا المعنى: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد». [مسلم، ك: الصلاة/744].

مُذْنِبٌ مثلي لو أدرك معنى القرب لَمَا سارع الخطى يزاحم ويدافع الركب لتقف بين يدي النبي الكريم سيدنا محمد ﷺ، ستكون الخطى بتؤدة وعلى وَجَل يؤدي إلى الأدب، وسيعلم مذنبٌ مثلي أن هذا الجسد الذي يتحرك لاهثًا إلى هذا النبي الكريم ﷺ هو آخر ما يكون في معنى القرب.

وحتى يتأكد لنا معنى القرب، فنظرة تأمل إلى النبي ﷺ وهو يبين لنا أن قرب الطاعة والتقوى هو أعلى أنواع القرب؛ حتى إنه فاق قرب النسب، يظهر ذلك في قول الحبيب النبي ﷺ حين قال لفاطمة– رضي الله عنها: «يا فاطمة، اعملي فإني لا أغني عنكِ من الله شيئًا... لا يأتيني الناس بأعمالهم يوم القيامة وتأتوني بأنسابكم».

ويقول الله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ) (المؤمنون: 101).

ويصف القرآن دعوة سيدنا إبراهيم لأن تظل الرسالة في ذريته: (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة: 124). ويقول النبي ﷺ: «أنا جدُّ كل تقي». [كشف الخفاء: 1/ 234]، «سلمان منا آل البيت». [المستدرك: 3/ 598].

ويؤكد الحديث القدسي أن نسب الطاعة أقوى من أي نسب آخر، قال الله تعالى: «أيها الناس إني جعلت نسبًا وجعلتم نسبًا، قلت: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان أغنى من فلان، وفلان أقوى من فلان».

من هنا يتأكَّد لنا أن سبيل القرب إنما يكون بالطاعة والتقوى.

كانت هناك أجساد كثيرة قريبة من رسول الله ﷺ، لكنَّ الفائزين منها بمعنى القرب من تحقق فيهم وصف الطاعة والتقوى والمتابعة والتأسي والتأدب والتخلق بخلقه ﷺ. ومن لم يتحقق فيهم هذا الخلق ما فـازوا بمعنى القـرب، وما شفع لهم قرب أجسـادهم منه ﷺ، وأفراد المشركين والمنافقين في حياتهم مثل واضح وشاهد قوي على ذلك.

وكانت هناك أجساد أخرى لم تكن بالمدينة زمن النبي ﷺ، لكن وصف الطاعة تحقق فيها؛ فتأتَّى لها معنى القرب، تأتى لها معنى القرب لدرجة أن ينبه النبي ﷺ على منزلتهم؛ ويرشدنا سيدنا عمر– رضي الله عنه– أن يسأل هذا القريب البعيد أن يستغفر له، نعم سيدنا عمر– وهو من هو في القرب– يسأل أويسًا القرني من اليمن حين يأتي مع أمداد اليمن ووفودها، يسأله عمر– رضي الله عنه– أن يستغفر له كوسيط رسول الله ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ولا يزال الحبيب النبي ﷺ ينبه الأمة إلى معنى القرب؛ كي نفقه ديننا ونفهم، فيقول ﷺ: «أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا». [الترمذي، ك: البر والصلة /1941].

وكما أن معنى القرب مقترن بالطاعة والتأسِّي برسول الله ﷺ فإن معنى البعد مقترن

بالمعاصي والمخالفات. ولقد أخبر الحبيب النبي ﷺ أن هناك أناسًا من المسلمين تطردهم الملائكة وتبعدهم عن الحوض لأنهم ابتدعوا في دين الله تعالى ما ليس منه.

وحين يفقه المؤمن ذلك سيتسامى أثناء الزيارة، وأثناء الوقوف بين يدي هذا النبي العظيم ﷺ، يتسامى عن مطالب الجسد، ويشتغل بما أمر الله به، وأوصى به الحبيب المصطفى ﷺ من الصلاة والسلام عليه والدعاء له بالوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة؛ لا لأن النبي ﷺ في حاجة إلى دعائنا، بل امتثالًا لأمر النبي ﷺ ورغبة فيما وراء ذلك من خير للعبد من ربه تعالى.

وكثرة الصلاة عليه، والتأدُّب أمامه، والاستشفاع به وسؤال الله تعالى – فيه تمام الغنى عن النزول بالزيارة إلى ما دون ذلك، ويتجه المؤمن للزيارة دون مدافعة أو مزاحمة أو رفع صوت، بل يقدم رجلًا ويؤخر أخرى، يقدم قدم المحبة ويؤخر قدم التقصير، يسلم في أدب ويدعو ربه في خضوع وينصرف في تواضع.

وكما كان النبي ﷺ حريصًا على أمته.. حريصًا عليهم من المعصية والشرك والكفر والخلاف فعلى المؤمن التأسِّي برسول الله في ذلك، فيكون حريصًا على إخوانه المسلمين. وليكن ديننا ولتكن عبادتنا حسب ما ورد في الشرع: «القرآن والسنة»، ففيه الغنى عن أقوال البشر، وهل استنفدنا كل الشرع وما ورد فيه حتى نتجاوزه إلى غيره؟!

وحتى إن حدث هذا فليس لنا أن نتجاوزه. ليس هذا فحسب، بل إن الخروج من خلاف العلماء أمر أجمع عليه الفقهاء وأهل العلم فضلًا عما في ذلك من جمع لكلمة المسلمين.

ومما دار بخلدي من تأملات في جوار النبي الكريم ﷺ عدم التعويل على الأحوال الخاصة في الدعوة، مع عدم إنكارها على أصحابها؛ فهي أحوال تخص صاحبها، وحسابه على الله تعالى إن صدقًا أو غير ذلك وإنما التعويل على الشرع الوارد، ويا حبذا المجمع عليه؛ فالناس في حاجة إلى الوضوح والإقناع، وهذا أسلوب القرآن في الدعوة: الوضوح والإقناع بالأدلة المتنوعة والشواهد الواضحة، بعيدًا عن الغموض والطلاسم والغيبيات التي لها طابع الإبهام والغرابة التي تورث العقل تحيرًا.

ونحن نؤمن بالغيب، وبالضبط بالأمور التى حددها الله تعالى في القرآن وجعلها جزءًا من إيمان المؤمن؛ أما الأحوال الخاصة وما يتصل بها من أمور غيبية فأمرها إلى الله تعالى، فليس من الحكمة تكليف الناس بها.

فالأمة مكلفة بالكتاب والسنة، وبهما يكون معنى القرب.. بحياتهما في علم الأمة وعملها، مع الفقه في دين الله عز وجل.

* * *

فيك صفة من رسول الله ﷺ

- لا تفقد الأمل.
- فيك صفة من رسول الله ﷺ.
- الله يحبــك.
- من أي البلاد أنت؟

* * *

في حوار مع شارد عن ربه، استحوذ عليه الشيطان، واستبد به هواه؛ فأساء إلى أهله، بل إلى أقرب الناس إليه، وطلبوا نصحًا له لعله يعود إلى صوابه؛ وذهب إليه جمع من الصالحين الذين يحيطون بالعائلة وأدلى كل منهم بدلوه، وقالوا له من كلام الوعظ والحلال والحرام ما شاءوا، غير واحد منهم التزم الصمت، وكان رد الفعل عند الرجل المكابرة والإصرار إلى أن طردهم.. وهم في طريق الباب للخروج قال الرجل الذي جلس صامتًا طول الجلسة لصاحب الدار الذي طردهم منها هامسًا في أذنه: يا فلان فيك صفة من صفات رسول الله ﷺ. ووقعت الكلمة في قلب الرجل العاصي وعقله ونزل من كبريائه وإصراره وغفلته.

دار رأسه وأخذ يفكر: أي صفة بي من صفات رسول الله ﷺ؟! وأنا على هذه الحالة.. وسأل عن الرجل الذي قال له هذه الكلمة.. وذهب إليه وسأله: أي صفة بي من صفـات رسـول الله ﷺ؟! فقال له: أنا الآن على موعد بالمسجد، تعالَ وبعدها نجلس معًا أوضح لك الأمر. فذهبا إلى المسجد وصليا واستمعا لمجلس علم وقرآن وذكْر، وكان لمجلس العلم أثر، ولمجلس القرآن أثر، ولمجلس الذكر أثر، وأصبح الرجل مهيئًا لسماع الإجابة وأكثر تشوقًا إليها، فقال له: الوصف الذي فيك من صفات الرسول ﷺ هو الصدق؛ فأنت رجل لم تخدعنا، ولم تراوغنا بل قلت ما عندك وكنت واضحًا صريحًا، والصدق من صفات رسول الله ﷺ. فبكى الرجل وكانت فاتحة خير لصلاحه.

إن مَن دخل إلى الرجل من منطقة عصيانه (المنطقة المظلمة) فشل في الوصول إلى غايته؛ في حين أن من دخل من المنطقة المشرقة (منطقة الخير) نجح مع الرجل.

في حالات كثيرة قد لا يفيد الوعظ المباشر، ويكون الأنفع الدخول إلى الشخصية من بابها الذي تتأثر به، ويكون البحث عن صفة طيبة في الإنسان يزكيها الداعي وينميها يكون لها فعل السحر في إصلاح الحال. وكما أن الترهيب باب من أبواب الموعظة، فالترغيب باب عظيم لها.

وكم أتأمل عظمة رسول الله ﷺ في حواره مع عَدَّاس بعد أن طرده أهل الطائف وسلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، وجلس

يستظل بحائط بستان لابني ربيعة، فبعثا إليه بعنقود عنب مع أجيرهما عدَّاس، فوضعه عدَّاس بين يديه ﷺ ودعاه لأن يأكل فمدَّ النبي ﷺ يده وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال عدَّاس: هذا كلام غريب لا يعرفه أهل هذه البلاد. فقال النبي ﷺ: «ومن أي البلاد أنت؟» فقال عدَّاس: من نينوى. فقال النبي: «بلد الرجل الصالح يونس بن متى» فقال عدَّاس: أوَ تعرفه؟ فقال الرسول: «نعم إنه أخي فهو نبي وأنا نبي»، فأقبل عدَّاس على رسول الله مقبِّلًا رأسه ويديه.

انظر- رعاك الله- كيف أن رسول الله ﷺ لم يشتغل بذم من آذوه وطردوه، بل اشتغل بما يزكي النفوس.

* * *

الدين ليس صناعة بشرية

- هل لنا أن نطلق العنان للعقل في كل شيء؟!
- هل من حق البشر التغيير في الدين؟!
- هل الدين خاضع للتطور مثل باقي مظاهر الحياة؟!
- هل الدين صناعة بشرية؟!
- المرجعية الدينية، تكون للعقل أم لخالق العقل؟
- ما موقع الاجتهاد في الدين؟

* * *

في إطار الدعوة لإعمال العقل وإيقاظ الوعي للتغلب على الجمود الذي نال من أُمَّتِنا وأورثنا التخلف عن ركب الحضارة، تتعالى الصيحات لإطلاق العنان للعقل في كل شيء، وبدلًا من أن نرى جهد العقل في معركة الحضارة العلمية التي هي مدينة بوجودها للعقل البشري، بما أنجزه من اكتشافات ومخترعات جعلت الإنسان يتسيد ويسيطر على الطبيعة، بدلًا من ذلك رأينا هجومًا على الدين باسم حرية الفكر وإعمال العقل لدرجة وصلت إلى محاولة تغيير ثوابت الدين، مثل إمامة المرأة للرجال في صلاة الجمعة، ودعوات لمساواة المرأة بالرجل في الميراث، ودعوات بإباحة المثلية الجنسية، وحق الطبيب في إنهاء حياة المريض الميئوس من شفائه.. إلخ.

وهذا يجعلنا نتساءل:

- هل من حق البشر التغيير في الدين؟!
- هل الدين خاضع للتطور مثل باقي مظاهر الحياة؟!
- هل الدين صناعة بشرية؟!
- وهل المرجعية الدينية تكون للعقل أم لخالق العقل؟!
- وما موقع الاجتهاد في هذا الإطار؟!

أولًا: من المهم أن نؤكد أن الإسلام عَظَّم من قيمة العقل وعدَّه من أهم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، ولقد أولى الإسلام اهتمامًا خاصًّا بنعمة العقل، سواء من حيث العناية بها والمحافظة عليها، أو من حيث توجيهها وإرشادها إلى ما يفيد.

فمن ناحية المحافظة عليها: حرَّم الإسلام كلَّ ما يضرُّ بها أو يمسها بسوء، مثل شرب الخمر، والمخدرات، والمسكرات، وفي هذا لون من الاهتمام والعناية بنعمة العقل. ومن ناحية توجيهها فقد جاء القرآن الكريم هاديًا للعقل لكي لا يضل، وبخاصة

في مسائل ما وراء الطبيعة من أمور الغيب التي تعجز وسائل الإدراك البشري عن التعامل معها أو بحثها.

ومن تعظيم الإسلام لنعمة العقل أن جعله مناط التكليف والخطاب، ولك أن تتأمل عشرات الآيات التي بها دعوة صريحة لإعمال العقل في فهم ما كلف به، وفيما خلق الله من مخلوقات؛ لترى فيها دليلًا على قدرة الخالق، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ) (آل عمران: 190). إلى أن قال: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) (آل عمران: 191).

وكثيرًا ما يرد في القرآن الكريم: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ) (أَفَلاَ يَعْقِلُونَ) ونحو ذلك.

ويقصد بالعقل في السياق القرآني الفهم والتمييز، فهو الضابط لتصرفات الإنسان.

مسائل الغيب في نظر المنهج العلمي:

إذا كان الإسلام قد أطلق العنان للعقل في مسائل الماديات في كل ما يخضع للتجربة، فإن مسائل الغيب لم يجعلها الإسلام مجالًا للبحث العقلي؛ لأن أدوات البحث حينئذٍ غير كافية.. ناقصة.. وبالتالي ستكون النتائج غير صحيحة ومضللة.

والعلم نفسه يعترف بأن مسائل الغيب ليست موضوعًا للبحث العلمي، ويزيد هذه الحقيقة تأكيدًا تجربة البشرية في بحثها الدائب في مسائل ما وراء الطبيعة.

إن البشرية دائمة الاختلاف حول مسائل الغيب والأخلاق، واجتهدت البشرية للوصول إلى ميزان يفصل بين الحق والباطل.. واختلفت ولا يزال الاختلاف إلى اليوم بين الفلاسفة في مسائل الأخلاق.. وفي التمييز بين الحق والباطل، وتقوم أدلة عقلية لرأي ما وتهدمها أدلة عقلية أخرى.. وهكذا.

حتى من زعم أنه اخترع مقياسًا للفصل بين الحق والباطل، فإن التجربة هدمت آراءه، ولنأخذ على ذلك مثلًا: «ديكارت» لقد زعم أنه اخترع منهجًا يفصل بين الخطأ والصواب، وتهاوى منهج ديكارت وهدمت التجربة آراءه في الجانب المادي، وأما آراؤه المعنوية فقد خالفه فيها أساطين الفكر والفلسفة، وبقيت مسائل ما وراء الطبيعة (الغيب) ظنية، واحتدم الخلاف فيها.

إن الحضارة المادية مدينة للعقل البشري.. فللعقل في جانب المادة أن يبتكر.. وأن يخترع.. وأن يجرب.. فهذا مجاله، أما مسائل ما وراء الطبيعة (الغيب) فالعقل يعجز عن الوصول لليقين فيها.. ومن هنا جعل الله الدين هاديًا للعقل في مسائل الأخلاق (الخير والفضيلة) والدين.

موقع الاجتهاد في الدين:

المجتهد يقدح ذهنه في دائرة فهم النص والاستنباط منه والقياس عليه، لكنه لا ينفصل عنه ولا ينقضه ولا يأتي بضده، كما أن النص إذا جاء صريحًا في الحكم من قرآن أو سنة فلا يجوز معارضته، وإنما الاجتهاد في تكييف واقع المسألة على هذا النص. وهذا هو المستفاد من سؤال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل– رضي الله عنه– حين بعثه إلى

اليمن: «كَيْفَ تَقْضِي؟»

فَقَالَ: أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللهِ.

قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ؟».

قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: «فَإِنْ لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟». قال: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلا آلُو (أي لا أترك الاجتهاد ولا أقصّر فيه).

فربَّت رسول الله ﷺ على صدر معاذ- والصدر وعاء العلم والفقه- قائلًا:

«الْحَمْدُ لِلهِ الَّذي وَفَّقَ رسولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ». [أبو داود، ك: الأقضية/ 3119].

- الإسلام لم يُعْطِ سلطة التغيير في الدين لأحد، ولا للرسول ﷺ:

لقد شدَّد الإسلام على صيانة الدين عن التغيير أو التبديل، وليس لأحد هذه السلطة، ولا حتى النبي ﷺ، فهو يبلغ ما أنزل إليه من الله عز وجل دون زيادة ولا نقصان، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) (المائدة: 67).

وقال تعالى في إجابة الكفار الذين طلبوا من رسول الله ﷺ تبديل بعض الآيات وتغييرها: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (يونس: 15).

فليس لعلماء الدين في الإسلام أن يغيّروا شيئًا؛ لأن الدين من الله، والمرجعية في الدين لا تكون لغير الله عز وجل؛ لأن الله هو الأعلم وهو أحكم الحاكمين، الخبير البصير، صاحب القدرة المطلقة.

لقد أنزل الله الدين هاديًا للعقل ومرشدًا له في أمور الغيب ومسائل الأخلاق والتشريع.

وعلى العقل أن يجتهد في أداء دوره في فهم رسالة الله إليه، والوعي بما فيها، وهذا مقام التسليم، التسليم للأعلم ولصاحب القدرة التي لا حد لها، وإن كان أحدنا يسلم أمره لمن هو أكثر منه علمًا وخبرة، فإذا سُئِل أحدنا: لماذا تأخذ هذا الدواء؟ يجيب: لأن الطبيب وصفه لي. فكيف بنا لا نسلم لله الخالق؟!

العقل والغيب والإيمان:

لما كانت مسائل الغيب فوق قدرة العقل؛ أمرنا الله عزَّ وجل أن نؤمن بها، وإيماننا بها نابع من إيماننا بطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى؛ فالله سبحانه وتعالى لا يستشير الإنسان ولا يحتكم إليه في أي قاعدة من القواعد التي شرعها؛ فالله هو الكمال المطلق، كل الكمالات له، مُنَزَّهٌ عن النقص، ولا يتأتى عقلًا أن تحتكم الكمالات إلى الكائن المتصف بالنقص، وهو الإنسان!!

وكل من توهم ذلك فإنه لا يقدر الله حق قدره، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإنما أرسل الله الرسالات؛ لتتبع دون حرج يحوك في الصدر أو شك يجول في النفس، وينبغي للإنسان أن يعرف حدَّه مع ربه فلا يتعالم على الله، ولا يقدم رأيه ولا اقتراحه على هدي ربه، ونحن أمام آيات من القرآن تؤكد هذه الحقيقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الحجرات: 1).

(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء: 65).

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا) (الأحزاب: 36).

وهذا في جوهره هو معنى الإسلام: إسلام الوجه لله، إسلام العقل لله، إسلام القلب والنفس لله، أن تكون كل الأنفاس والحركات والسكنات لله. قال الله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام: 162، 163).

لقد جاء الوحي هاديًا للعقل في الأمور التي لا يتأتى للعقل أن يسلك سبلها أو يقتحم حماها، وهذه الميادين هي الدين، والدين ليس رأيًا بشريًّا، إنما هو من الله، إنه تنزيل من حكيم حميد، ولو كان الدين بالعقل لأصبح الناس كل يوم في دين جديد، بل لأصبح لكل فئة دين يناسب عقلها ومستواها الفكري!

أما الطبيعة والكون من أرض وفضاء وجبال وبحار، من كواكب وأقمار وشموس، من مادة وطاقة، فكل ذلك قد جعله الله مجالاً للعقل، وحثَّ العقل على أن يجتهد في اكتشاف سنن الله الكونية وقوانين الطبيعة؛ ليرى صنع الله الذي أتقن كل شيء؛ ولكي يتأتى له أن ينتفع بكل ما سخر الله له في السماء والأرض.

هل الدين خاضع للتطور مثل مظاهر الحياة الأخرى؟

التطور هو التغير من حال إلى حال، وهو تغير مستمر دائم، إنه يعبر عن حركة الحياة، والتطور الفكري أنجز حضارة مادية عظيمة، أما في جانب الدين، فلا مكان لتطور الدين للأسباب التالية:

أولًا: أن الدين ليس رأيًا بشريًّا حتى يصيبه التطور، إنما هو من الله.

ثانيًا: أنه لما كان الدين من الله، والله سبحانه مُنَزَّه عن النقص؛ فلا تغير في الدين ولا تطور.

ثالثًا: أن فكرة التطور لو حدثت في الدين لأدت إلى استبدال آراء البشر وأهوائهم بالدين، ولتحول الدين من إلهي قدسي إلى بشري ناقص متغير، وخذ مثالًا: في العقيدة نقول: الله واحد، فهل غدًا نقول: اثنان أو ثلاثة أو نصف، بحسب ما نراه؟

وهل بحسب فكرة التطور تتبدل الأخلاق والقيم فتكون الفضائل رذائل؟!

فدين الله عز وجل بعيد عن فكرة التطور؛ لأن فكرة التطور خاصة بالشأن البشري وليس بالشأن الإلهي: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنعام: 115).

(وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) (العنكبوت: 43).

* * *

واسجد واقترب

– كيف كرم الله الإنسان من بين جميع المخلوقات؟

– هل الجمادات حقًّا تغضب من المرء العاصي، بينما تسعد بالمرء المطيع وتحزن على فراقه؟

– كيف يبلغ الإنسان قمة القرب من الله تعالى؟

– هل هناك سجود آخر غير السجود الحسي المعروف؟

– أتعلم أن هناك خلفاء لإبليس من بني آدم؟

– وأخيرًا: أين الخلاص؟ وفيمَ النجاة؟

– (ففـروا إلى الله).

* * *

أتأمَّل هذه الحياة المليئة بالمتناقضات وعبث الإنسان: فظلم هنا وفقر هناك، ودمار وخراب، وطغيان وإفساد.. وقد ألمَّ الخوف بالجميع: القويّ قبل الضعيف، والغالب قبل المغلوب.. وأفسد الإنسانُ ما أولاه الله من نعم، فلوَّث البيئة وأفسد طعامه وشرابه وهواءه.

لقد كانت الملائكة قلقة على مستقبل الإنسان في هذه الأرض، حين استوضحت من ربها فسألت: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) (البقرة: 30). وكان الجواب من العلِيّ الأعلى: (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (الَبقرة: 30).

لقد كرَّم الله الإنسان بين المخلوقات التي خلقها في هذا الكون وجعلها مسخَّرة له، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ) (لقمان: 20).

وأخبر القرآن أن هذه المخلوقات سابقة في وجودها على الإنسان، لقد مرت أزمان على الكون بمخلوقاته المسبحة الطائعة ولم يكن للإنسان ذكر ولا وجود، ثم خلق الله الإنسان وجعل له ذكرًا وجعل له وجودًا، قال الله تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) (الإنسان: 1).

وتأتي الآية الثامنة عشرة من سورة الحج؛ لتكشف لنا عن مو قع الإنسان بين هذه المخلوقات والكائنات.

قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ

وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (الحج: 18).

والآية تقرر أن كل الكائنات بأنواعها ساجدة لله عز وجل دون أن يتخلَّف منها كائن، أو يشذّ عن موكب السجود شيء منها وسبحان الله القائل: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء: 44).

إلا أن أمر السجود بشأن الإنسان كان عجبًا، إن الإنسان وحده- من بين كل هذه المخلوقات والكائنات- هو الذي انقسم إلى فريقين: فريق كان مع موكب السجود وكان من الخاشعين الطائعين، فاستحق التكريم من الله عز وجل، وهو المقصود بقوله تعالى: (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)، وفريق آخر من الناس خرج عن موكب السجود وخالف ما عليه الكائنات فأعرض وعصى، وتجبَّر وطغى؛ فحق عليه العقاب واستحق العذاب، وهذا الفريق هو المقصود في قوله تعالى: (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)، ثم يقول ربُّنا معقِّبًا: (وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) وفي هذا تحذير شديد للإنسان من الوقوع في حبائل الشيطان ومخالفة الرحمن والشذوذ عن موكب السجود لله.

ومن الحقائق القرآنية المتصلة بهذا المعنى أن الكائنات التي سخَّرها الله للإنسان تكون في موقف الرفض والبغض للإنسان إذا كان عاصيًا لربه، فالعاصي والمخالف لربه لا تحبُّه الأرض التي يمشي عليها، ولا الماء الذي يشربه، ولا الطعام الذي يأكله، ولا السماء التي يستظل بها، يشهد لذلك قوله تعالى عن المشركين: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) (الدخان: 29).

في مقابل أن الإنسان الطائع لربه يبكي عليه موضع عمله الصالح من الأرض، ومصعد عمله في السماء، كما أخبر الحبيب المصطفى حين مرت عليه جنازة فقال: «مستريح ومستراح منه». فقالوا: يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ فقال ﷺ: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب». [البخاري، ك: الرقاق 7/ 180].

ما المقصود بالسجود؟

لقد عبَّر الله عن طاعة الكائنات واستسلامها لخالقها بأعلى منزلة في الطاعة، وهي السجود. والسجود إنما هو سلوك المؤمنين المهتدين، وهو القمة التي يبلغها الإنسان في علاقته بالله عز وجل، إنه الاستسلام التام والخضوع الكامل، والتذلُّل إلى الله سبحانه وتعالى، وقد مدح الله به المؤمنين، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) (السجدة: 15).

وقوله تعالى: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (مريم: 58).

وقوله تعالى في صفة عباد الرحمن:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) (الفرقان: 64).

ووصف المؤمنين بأن النور الذى يعلو وجوههم هو من أثر السجود، فقال تعالى: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (الفتح: 29).

ووُصِفَ كثيرٌ من الصحابة والتابعين بأنه كان ساجد القلب، ووُصِفَ خُلَّص العلماء بالسجود، قال الله تعالى:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر : 9).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ وهو من أهل الصُّفَّة– رضي الله عنه– قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته.

فقال ﷺ : «سلني».

فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة.

فقال ﷺ: «أو غير ذلك؟».

قلت: هو ذاك.

فقال ﷺ: «فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود». [مسلم 745 فضل السجود].

فالسجود– إذن– من كبريات الوسائل لترويض النفس كي تتزكى، وهو– بذلك– من الوسائل التي توصل إلى الجنة.

وفي هذا المعنى روى الإمـام مسـلم في صحيحـه عن عبد الرحمن، ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليك بكثرة السجود؛ فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ عنك خطيئة». [صحيح مسلم، ك: الصلاة 753].

والسجود الذى يريده رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث لا يقتصر على مجرد السجود الحسي المعروف، وإنما هو– مع حركة السجود الحسي– يشمل المعنى العميق في النفس الذي يتمثَّل فيه جلال الله وعظمته ورحمته ووده، ويتمثل فيه سجود القلب والعقل، بمعنى الخضوع لهذا الجلال وهذه العظمة، والانقياد المطلق، والاستجابة الكاملة لهدى الله سبحانه، فإذا كان السجود بهذا المعنى، كان بذلك سبيلًا إلى الجنة بل إلى أكثر من الجنة، وهو القرب من الله عز وجل.

قال الله تعالى: (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) (العلق: 19).

ويقول النبي ﷺ في هذا المعنى: «أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد». [مسلم، ك: الصلاة/744].

ويتنافى مع السجود لله تقديم هوى النفس أو العقل على أمر الله سبحانه، وكل سلوك من هذا القبيل إنما هو لون من الكبرياء والإبليسية التي تعود إلى كبر إبليس حين أمره الله بالسجود لآدم، فرأى نفسه وقارن بعقله بين أصل خلقته وأصل خلقة آدم، فقال: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) (الأعراف: 12).

وقال: (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) (الإسراء: 61).

وغفل إبليس عن أن السجود إنما هو امتثال لأمر الله، ولا يتعلق الأمر بأصل خلقة هذا ولا ذاك، فالله قد أمر، وليس بعد أمر الله قول ولا مناقشة ولا تَعَالُمٌ على الله عز وجل.

وفي هذا المعنى يقول ربنا جل جلاله:

(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء: 65).

ويقول تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا) (الأحزاب: 36).

وإذا كان لإبليس خلفاء من بني آدم فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور إبليس في المجتمع الإنساني، إنهم هؤلاء الذين يشككون في الوحي الإلهي، إنهم هؤلاء الذين يحاولون أن يَزِنُوا الوحي الإلهي بميزان العقل فيرفضوا ويقبلوا ويؤوّلوا ما شاء لهم الهوى، هؤلاء سجدوا للعقل ولم يسجدوا لله، وسبيل المؤمنين إنما هو السجود لله وحده، وذلك سبيل الراسخين في العلم؛ إذ الراسخون في العلم هم دائمًا مؤمنون بالله ساجدون لأمر الله، وإليهم تشير الآية الكريمة: (أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ) (الزمر : 9).

وختامًا: لا ملاذ للبشرية إلا أن تسجد لمن خلقها فسواها، وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة، ولا نجاة للإنسان إلّا بتحقيق معنى السجود لله في حياته كلها، الاستسلام الكامل، الاستجابة الحقيقية لهدى الله.

وحسبنا قول الله تعالى: (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (271) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران: 172 – 173).

وإلا فجزاء الإعراض عن موكب السجود وبيئة الأنوار ما تعيشه البشرية الآن من طغيانٍ وإفساد وتناقضات، ألم يحذرنا الله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (طه: 124).

* * *

يا رب بك أستجير

* * *

* * *

* * *

* * *

* * *

* * *

* * *

* * *

دعاء وتضرع

«اللَّهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللَّهم أعطني إيمانًا ويقينًا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة.

اللَّهم إني أسألك الفوز في العطاء والقضاء ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء. اللَّهم إني أنزل بك حاجتي وإن قصر رأيي وضعف عملي، افتقرت إلى رحمتك فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللَّهم ما قصر عنه رأيي ولم تبلغه نيتي ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحدًا من خلقك أو خير أنت معطيه أحدًا من عبادك، فإني أرغب إليك فيه وأسألكه برحمتك يا رب العالمين.

اللَّهم ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، الركع السجود الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد.

اللَّهم اجعلنا هادين لا ضالين ولا مضلين، سلمًا لأوليائك وعدوًّا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك.

اللَّهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، اللَّهم اجعل لي نورًا في قبري، ونورًا في قلبي، ونورًا من بين يدي، ونورًا من خلفي، ونورًا عن يميني، ونورًا عن شمالي، ونورًا من فوقي، ونورًا من تحتي، ونورًا في سمعي، ونورًا في بصري، ونورًا في شعري، ونورًا في بشري، ونورًا في لحمي، ونورًا في دمي، ونورًا في عظامي، اللَّهم أعظم لي نورًا، وأعطني نورًا، واجعل لي نورًا، سبحان الذي تعطف العز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي المجد والكرم، سبحان ذي الجلال».

تم بحمد الله تعالى

* * *

أحـدث الإصـدارات

الدكتور

محمد محمد داود

■ المــلاذ الآمــن.



Table of Contents